يا عمال العالم اتحدوا

المكتبة التقدمية

عائدة الهاني

اضواء على أصول الشعب التونسي العرقية وظروف استعرابه

تقديم
محمد الكيلاني

بيرم للنشر

الاهداء : الى بيرم وميّ

كلمات الى عائدة . .
بعد الرّحيل

لن تمحى من الذاكرة صورة ذلك الصيف القائظ الذي شهد مولد «أطروحات» وانطلاقتها . . . كنا حينذاك قلّة وكنا نحلم كثيرا مصممين على السير ضدّ التيار وكنت أنت من بين هذه القلة التي سعت الى تجسيد حلمها وصممت على جعل مشروعها هذا يتنفس نسمات الحياة ويتحول الى واقع على الرغم من احترازات البعض وشكوكهم . . .

وكان «اضواء على اصول الشعب التونسي العرقية وظروف استعرابه» مساهمتك / مراهنتك وانخراطك الملوس في انطلاق هذا المشروع الجماعي وجزءا من مشروع شخصي كنت تحلمين بانجازه : قراءة شاملة من منظور جديد لتاريخ تونس والمغرب العربي منذ فجر التاريخ حتى فترة الاحتلال العثماني وهو الذي جعلت منه موضوع بحثك في المرحلة الثالثة . . .

وبعد العدد الثاني من «أطروحات» الذي احتوى الجزء الثاني من مساهمتك المتميزة ، لم ننقطع عن اعتبارك ضمن أسرة المجلة التي لم يشغلك المرض العظال عن متابعة كل خطوة تقطعها ، متفاعلة مع ما تحقق من نجاحات وما تواجه من مصاعب . . وكنا نمني النفس بعودة عائدة بيننا ونأمل . . حتى كان آخر لقاء لنا بك وأنت على فراش الموت في أواخر شهر جانفي الماضي . . . كنا نغالب المصاعب والمتاعب ونسعى لولوج مرحلة جديدة تتبوأ فيها «أطروحات» مكانها الحريّ بها تحت الشمس . . وكنت أنت تغالبين المرض . . تهزمين الالم . . . وتواجهين الموت بتحدي من وضع بصمات لن تمحوها الأيام على صفحة الحياة . . .

الكلمات ، يا عائدة ، لن تفي في التعبير عن لوعتنا في افتقادك ، ولكن العمل المستجيب بعمق الى نفس المبادىء والقيم التي نذرت آخر نفس في حياتك من أجلها هو وحده المحك الذي نحاسب أنفسنا ويحاسبنا غيرنا ويمتحن مدى صدقنا ووفائنا لوعدنا . . .

سوف تظل البسمة التي لم تفارق محيّاك يا عائدة حتى آخر لحظة في حياتك خير نبراس لنا وسوف تكون شجاعتك وتصميمك على قهر الألم ومغالبة الموت خير مؤازر لنا في مواجهة المصاعب وتذليل العوائق والظفر بتحقيق الانتصار .

ولدت عائدة الهاني، زوجة محمد الكيلاني في 21 اكتوبر 1955 .
عملت مدرسة تاريخ بالمعاهد الثانوية

ناضلت في صفوف الاتحاد العام التونسي للشغل وتحملت مسؤولية نيابة المعهد الثانوي برادس (المبيت) وعضوية لجنة المرأة العاملة المتفرعة عن لجنة الدراسات التابعة للاتحاد العام التونسي للشغل.

كما ناضلت في صلب فرع الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الانسان بالزهراء.

وقد واجهت عائدة المرض العظال، بكل رباطة جأش، وقضت سنتين كاملة في صراع لا يرحم معه، إضافة الى المتاعب الاخرى التي سببها اضطرار زوجها السجين السياسي السابق الى الاختفاء في فترة كانت فيها هي وطفليها في أوكد الحاجة الى حضوره الى جانبهم، ولكن هذا لم يفت من عزمها بل كان على العكس، دافعا لمزيد من البذل والعطاء فسجلت في المرحلة الثالثة لانجاز أطروحة حول تاريخ تونس وهو ما أرادت به
مسابقة الزمن لانجاز حلم طالما راودها. . كما أنها كفت في آخر فترة من حياتها، عن اطلاع ذويها وأصدقائها، على حقيقة تطورات مرضها وهي الملمة بكل دقائقها، اشفاقا عليهم من أعباء مشاركتها تحمل ما كانت تستطيع تحمله لوحدها بشجاعة نادرة.

الناشر.

تقديـــم

راودتني مرارا والراحلة عائدة، فكرة المساهمة في النقاش الجاري بين عدد من المثقفين وبين بعض الأوساط السياسية حول الهوية القومية للشعب التونسي. ولم تشهد هذه الفكرة طريق التجسيد العملي إلا مع أواسط جوان 1982.

لقد حاولنا النزول بوجهة النظر الماركسية حول المسألة القوميّة وتكوّن الامم بصفة عامّة إلى مجال الواقع القومي للشعب التونسي، بغاية التخلّص من الاحكام والآراء العامة. الأمر الذي اضطرنا الى تتبّع المراحل التاريخية والحضارية التي مرّ بها ورصد عملية تأسس هويته القوميّة.

وتكلّفت من جهتي بدراسة المراجع النظرية بينما تولّت عائدة البحث التاريخي. وكنا نناقش بعمق كل الاشكاليات التي تطرحها الدراسات والمراجع التي اعتمدناها خاصة وأننا لا نشاطر العديد من أصحابها منطلقاتهم وبعض استخلاصاتهم.

ولم نفرغ من هذه المحاولة المتواضعة الاّ في أوت 1983 بإلحاح من مجلّة «أطروحات»..

وبعد ان رحلت عنّا عائدة طلب منّي صديقي لطفي إصدار هذا العمل في كرّاس عرفانا منا لها بما قدمت للحركة الديمقراطية في البلاد. فقمت بمراجعة النص من جديد وأعددت له توطئة نظرية تتجاوز تلك التي ظهر بها في «أطروحات»، مع احترامي التّام للآراء والأفكار والمواقف التي كنّا ناقشناها معا.

● محمد الكيلاني

حــول القوميّة والأمّـة

تمكنت، من خلال البحث حول «أصول الشعب التونسي العرقية وكيفية استعرابه»، من الوقوف على مدى تعسّف البعض من مفكّرينا وسياسيّينا على الـواقـع. فهم يطوّعـونه حسب قوالب جامدة تخدم مصلحة سياسية خاصّـة بهذا الفريق أو ذاك. إذ منهم من اعتبر أن هويّة الشعب التونسي بربرية أو قرطاجيّة، ولم يكن العرب سوى غزاة احتلوا بلادنا ولم يبق لهم أيّ أثر. وكان الاستعمار الفرنسي أوّل من ابتدع هذه النظرية بهدف عزل الشعب التونسي عن بقيّة الشعوب العربيّة والتفرّد به. فأنشأ مركز دراسات تكفّل بمحاولة إعطاء اللهجة العامية التونسية مقوّمات لغويّة ونحويّة كي تأخذ مواصفات لغة قومية مستقلّة. وعمل في نفس الوقت على فبركة تاريخ خاص بالشعب التـونسي. ومنهم من ذهب إلى حدّ ربط شمال افـريقيـا بأوروبـا تاريخيـا وجغـرافيا معتبرا إيّاه تواصلا طبيعيا لها. ووجدت هذه النظرة الاستعمارية صدى لها لدى العديد من الساسة.

ونسج البعض الآخر على منوال تكوّن الأمم الأوروبيّة في عهد الرأسمالية الصاعدة كي يستخلص أن الشعب التونسي تشكّل في أمّة متميّزة عن باقي «الأقطار العربيّة الاخرى» لها لغتها القومية الخاصّة التي انبثقت على قاعدة اللهجـة التـونسية. تماما كما كان الامر بالنسبة للغات المتفرّعة اللاتينية.

وتمكّن هذا الطرح من التأثير على أوساط «اليســار» من أواخر الستينات إلى أواسط السبعينات.

أمّا بالنسبة «للقوميّين» عامّة فإنّ دفاعهم عن وجود «أمّة عربية واحدة، من المحيط الى الخليج» يرتكز على ثلاثة عوامل : اللغة والدين والأرض.

وهم يعتـبرون أن الأمّة العربيّة سابقة في تكوّنها للرأسماليّة إذ تشكلت في العهدين الأموي والعبّاسي. ويصل الأمر بالبعض منهم الى اعتبار الفينيقيين والقرطاجيين عربـا. إنّهم لا يقيمون وزنا للخصوصيات الحضارية التي تميّز كل شعب من الشعوب تماشيا مع ظروف اندماجه في القوميّة العربيّة.

وتنادي التيّارات المتسترة بالدين بالأمّة الاسلامية كـ «خير أمّة أخرجت للناس» دون اعتبار الهويّة القوميّة لمختلف الشعوب ذات الديانة الاسلامية، ودون اعتبار الفوارق الدينية داخل كل شعب من الشعوب فينقلب الاضطهاد الديني الى اضطهاد قومي (العرب مع الفرس والبربر. . ، الأتراك مع الفرس والعرب والبربر. . . الخ).

وبالمقابل ظل الطرح العلمي السليم للمسألة القومية من منظور مادي جدلي مجهولا على الساحة السياسية والفكرية، وسأحاول تقديم خطوطه العامة :

1 ـ الأمّة والقوميّة :

عرّف ستالين الأمّة بكونها جماعة ثابتة من الناس تكوّنت تاريخيّا على أساس أربع خصائص رئيسية وهي اللغة والأرض والتكوين النفسي الذي يتجلى في مميزات الثقافة الوطنية بمعناه الشامل وأخيرا وحدة الحياة الإقتصادية. إن هذه الخصائص مجمّعة تعرّف الأمّة، ويكفي غياب أو عدم نضج أيّ من هذه العناصر كي ينتفي وجودها كظاهرة، في حين أن وجود القوميّة لا يشترط نضج الخصائص الأربعة مجمّعة بل يكفي توفّر عنصرين أو ثلاثة، وعلى الأخص اللغة والتكوين النفسي والأرض، لتكون دالة على وجودها.

إنّ القوميّة هي أمّة في طور التكوّن أو في طور الإندثار، وذلك حسب أهّمية الخصائص المتوفّرة وحسب الظروف التاريخية التي يمرّ بها شعب من الشعوب. فعندما تكون الروابط القومية متينة ووصلت إلى درجة متقدمة من النضج تتشكّل الأمة إذا ما توفّرت الوحدة الإقتصادية كشرط لظهورها. وعندما تكون الروابط ضعيفة وتفتقد للعناصر المحدّدة في تكوّنها (اللغة والوحدة الترابيّة) تتحوّل الرّوابط القوميّة الى مجرّد روابط ثقافية (البرابرة مثلا).

إن المرور من القومية الى الأمة يمثل نقلة نوعية في سيرورة هذه الظاهرة، ويلعب العامل الاقتصادي الدور الحاسم في هذه العمليّة.

2 ـ ظهور الأمم تاريخيّا :

إنّ الأمّة تخضع لقوانين التطوّر كسائر الظواهر التاريخية. برزت للوجود لأوّل مرة في التاريخ في عهد الرأسمالية الصاعدة وظلت طوال العهود

السابقة في حالة تشكل أي تكوّن مختلف خصائصها اللغة والأرض والتكوين النفسي. كانت وقتذاك في حالة جنينيّة ولم تتعدّ أن تكون مجرّد إمكانية محتملة التحقيق عندما تصبح الظروف متاحة لذلك. وحوّلت الرأسمالية الصاعدة هذه الإمكانية الى أمر واقع لما تكوّنت سوقها الوطنية الخاصّة وتمركزت الحياة الإقتصادية والسياسية والثقافية أكثر من أيّ وقت مضى وربطت كل أجزاء البلاد في كلّ واحد وموحّد، وقضت على التجزئة الإقطاعية وهكذا ظهرت دول قومية (أي أمم) في أوروبا الغربية ودول متعددة القوميات (أمم بها أقليات قومية) في بلدان أوروبا الشرقية أين كانت سيرورة تكوّن الأمم بطيئة ويعود ذلك إلى بطء تطوّر نمط الإنتاج الرأسمالي في هذه البلدان مقارنة بشقيقاتها الغربيّة.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الإضطهاد القومي انحصر في مرحلة أولى في البلدان الرأسمالية. ومن ثمّة لم يتعد النضال القومي المستوى الحقوقي، أي حق الأمم في تقرير مصيرها بنفسها. إلاّ أنّه عندما بلغت الرأسمالية مرحلتها العليا : الإمبرياليّة، خرج الإضطهاد القومي من نطاقه المحدود كي يصبح سياسة عامّة للدّول الرأسمالية المتقدّمة التي عملت وتعمل على إخضاع شعوب وأمم وبلدان أخرى وكوّنت دولاً جديدة اقتسمتها حسب ميزان القوى فيما بينها كمناطق نفوذ خاصّة بها. فتحوّل شعار «حق الأمم في تقرير مصيرها» إلى «حقها في الإنفصال عن البلدان الإستعمارية» و«تكوين دولتها المستقلّة».

أعاق الغزو الإمبريالي تطوّر البلدان المهيمن عليها الطبيعي وفكّك سيرورة تكوّن سوقها الوطنية وبالتالي بورجوازيتها الوطنية ممّا كان له انعكاس سيىء على مسار تحرّرها الوطني وتكوّنها كأمم مستقلّة بذاتها. لأنّه أعاق، على الاخص، تطوّر وحدتها الإقتصادية وغذى النعرات الإقليمية ويكون بذلك أعاق عملية تحوّل القوميات الى أمم على الصورة التي ظهرت بها في البلدان الرأسمالية المتقدّمة، أي بقيادة بورجوازياتها الوطنيّة. ولم يبق أمام القوميات والأمم المضطهدة سوى طريق واحد لتحرّرها، هو طريق الثورة الاشتراكيّة.

3 ـ الوضع الخاص بالقوميّة العربيّة :

منذ إن انفصلت «الولايات العربية» عن الأمبراطورية العثمانية ركّزت القوى الإستعمارية أطماعها عليها وتقاسمتها فيما بينها وأعادت تقسيم بعضها وتحولت من أشباه مستعمرات الى مستعمرات ثمّ إلى مستعمرات

جديدة تحت نير الهيمنة الإمبريالية، وجعل منها الرأسمال الغازي مصدرا للمواد الأوّلية وسوقا لبضاعته ورساميله. لذلك تراجعت وتفككت نواتاة التشكل الرأسمالي في مجال التجارة والحرف فاستوعبها ووضعها في فلكه وكيّف نشاطها حسب حاجاته في نطاق أسواق محلية رسمت كمناطق نفوذ خاصّة بهذه القوّة الإستعمارية أو تلك.

وبذلك سارت البورجوازيّات التي مسكت بالسلطة في البلدان العربيّة في حدود الفضاء الجغرافي السّياسي الذي وضعه لها الإستعمار. ورغم توفّر عناصر عدّة تؤهل الشعوب العربية لإنجاز وحدتها القوميّة وبعث أمتها الموحّدة فإن بورجوازياتها الإقليمية أصبحت تقف حائلا دون تحقيق هذا الهدف حفاظا على مصالحها ومصالح حلفائها.

إن القول بوجود أمّة عربيّة ناجزة من المحيط الى الخليج غير واقعي يهمل عامل الوحدة الإقتصادية أي وحدة السّوق الوطنية التي يؤسسها رأسمال وطني. لعبت الرأسمالية في طورها الأوّل دورا تقدّميا، وكان لها الفضل في صهر وانضاج الروابط القوميّة لترتقي بالقوميّة الى مرتبة الأمة. وعدم فهم هذه المسألة أدى ببعض التيّارات الفكريّة الى العرقيّة، أو إلى اعتبار الأمة مجرّد ظاهرة ثقافية أو دينيّة، فربطت وجودها بظهور اللغة العربيّة حينا وبالدين الإسلامي أحيانا أخرى. ويصل الأمر بالبعض الى القول أن عنصر الوحدة الإقتصادية قد توفّر منذ العهد العبّاسي لينفي في النهاية كون الأمّة هي ظاهرة حديثة في التاريخ برزت في عصر الرأسمالية الصاعدة.

وبما أن المقوّمات الأساسية لوجود الأمّة العربية غير متوفرة متجمّعة لأنّها تفتقد لعامل الوحدة الاقتصادية، وهذا يعني أنها مازالت في طور التكوين. فإنّه يكون من الخطإ الحديث عن أمّة واضحة المعالم من المحيط الى الخليج والصواب يبقى الحديث عن قوميّة عربيّة مضطهدة من قبل الإمبريالية تناضل في سبيل تحرّرها وبناء كيانها القومي.

وأودّ الآن التعرّض إلى مسألتين غالبا ما يدور حولهما الجدل وهما :

أوّلا : الوحدة الاقتصادية للبلدان العربية

كانت الشعوب العربيّة في عصر الرأسمالية الصاعدة، وفي عهد الحركات القومية وتكوّن الأمم في أوروبا، شعوبا مختلّفة ترزح تحت نير الإقطاع

العثماني، والبورجوازيات العربية لم تكن قد تشكّلت كقوّة اقتصادية واجتماعية وسياسية لها شأن وقادرة على تحمّل دورها التاريخي كشقيقتها الأوروبية، بل كانت ضعيفة التركيبة والقاعدة الاقتصادية، هامشيّة النشاط ولم تتعدّ حدود التجارة إلاّ بقليل في نطاق الحِرَفْ، وبقيت غريبة عن الانتاج الصناعي الرأسمالي ولم تقدر على تحويله إلى مركز النشاط الاقتصادي نظرا لضعفها وثقل الكلكل الاقطاعي عليها. وفي الوقت نفسه كانت ضعيفة الشعور الوطني والقومي وساد لدى مفكّريها خلط كبير بين الرّوابط القوميّة والروابط الدينية ممّا جعلهم يدافعون في أغلب الحالات عن الامبراطوريّة العثمانية المسلمة أمام الغرب المسيحي.

لكن ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت بوادر الوعي القومي العربي وفي 1913 انعقد بباريس مؤتمر القوميين العرب الأوّل الذي أكّد على «حقّ العرب» في الوجود كأمّة مثل غيرهم من الأمم.
ومهما كانت أهّمية النهضة القوميّة في ذلك العهد فإنها ظلّت ضعيفة تفتقد إلى قطب اجتماعي يأخذ على عاتقه المهام والدور الخاص بتلك المرحلة التاريخية من تطوّر المجتمعات. ويعود هذا الضعف بصورة أساسية إلى الدّور المعيق الذي لعبه الرأسمال الإمبريالي في تفكيك قاعدتها الإقتصادية وربطها بمصالحه.

تطورت الرأسمالية في أوروبا بصورة سريعة غزت أسواقها المحلّية غزت أسواقها المحليّة ثمّ توجهت الى غزو العالم بأسره وكانت البلدان العربية أحد اهدافها، فوقع اقتسامها بين كبريات الدول الاستعماريّة، سواء باتباع التقسيم الإقطاعي العثماني أو بإعادة تقسيم جديد (بلاد الشام... الخ). وبحلول الاستعمار المباشر استحالت امكانية تطور رأسمالية قومية عربية وأصبحت الحدود الإقتطاعية حدودا استعماريّة. كما استحالت إمكانيّة توحيد الأسواق المحلّية ومركزتها في سوق قوميّة واحدة تلحم الروابط القوميّة وترتقي بها الى مستوى بعث «أمّة عربيّة واحدة».

صارت الرأسمالية في مرحلتها العليا نظاما عالميّا فرض على الشعوب المتخلّفة قوانينه وجرّ الطبقات السائدة القديمة والناشئة في دواليبه. لذلك حتى وإن كان لاقتصاديتها نفس المميزات تقريبا باعتبارها تابعة للإمبرياليّة فإنّه لا يصح النظر إليها كدلالة على الوحدة الإقتصاديّة. لأنّ لكل منها دورتها وتخضع لنظام تقسيم العمل العالمي، كما أنّ لكل منها مخططاتها «التنمويّة» الخاصّة.

ورغم كل هذه الحقائق فإن المتحمسين في الدفاع عن «الأمة العربية الواحدة» يحاولون التأقلم مع التحاليل المادّية التاريخية فيختلقون حججا غريبة كقولهم أن البلدان العربيّة عرفت وحدتها منذ العصر العبّاسي.

إنّ أصحاب هذا الرأي يسقطون ظواهر ومقاييس خاصة بعصرنا وبعصور ظواهر قديمة لإعطاء تبريرات «نظريّة» لفكرتهم وهدفهم السّياسي بقطع النظر عن سياق تطوّر الواقع في هذا العصر أو ذاك.

إنّنا إذا قارنّا الرأسمالية بأنماط الإنتاج التي سبقتها، نجد أنها الوحيدة التي توحّد السّوق الوطنية وتخلق دورة اقتصادية متكاملة وتربط جميع دواليب الإقتصاد ببعضها البعض. بينما يرتكز نمط الإنتاج الإقطاعي على الإقتصاد الطبيعي القائم على الاكتفاء الذاتي للإقطاعية والاقطاعي، فهو لا يتوجه للسّوق إلاّ في نطاق محدود كمكمّل ورافد للإقتصاد الطبيعي. إلاّ أن هذا لا ينفي وجود شرائح اجتماعية أو شعوبا تكون التجارة مركز نشاطها الاقتصادي. إن التجارة لا تعني الرأسمالية ولا التكامل الاقتصادي ولا توفّر دورة اقتصادية في بلد او مجموعة بلدان معيّنة، لأنّ المسألة تتعلّق بالإنتاج ونمطه. وإذا قبلنا أن التجارة تساوي الرأسمالية فلا مناص من القبول بالمقايضة كمرحلة رأسمالية تخلق وحدة اقتصادية في مستوى معين وهكذا يصبح ممكنا العثور على أمم في عهد العبوديّة وفي عهد الأمبراطوريات... الخ.

ودراسة العصر العبّاسي لا يمكن عزلها عما سبقها : ظهور الإسلام والدولة الأموية. ويمكنني الإكتفاء بالاشارة إلى أنّه منذ بداية عهد الخلفاء الراشدين أخذت السلطة الناشئة تتجمّع بصفة فعليّة بين أيدي رجال الدين وتجار مكّة الكبار، ثمّ أصبحت سلطة مطلقة مع مجيء عثمان بن عفان والدولة الأمويّة. وفي نفس تلك المرحلة ظهرت على الركح شريحة من القادة العسكريين الذين انتفعوا من الغزوات وأصبح عملاء الولايات الجديدة يحتلون هم أيضا مكانة بارزة في الحكم، وهكذا ابرزت أرستقراطية عسكريّة اندمجت بالتجار المكّيين الذين فتح لهم عثمان والدولة الأمويّة مجال الإثراء واسعا. لكن توظيف تلك الثروات الهائلة جرى أساسا في اقتناء الإقطاعات الواسعة والجواري والعبيد ومجالس اللهو والبذخ. فتنامت فئات المرابين والملاكين العقاريين. واستوعبت الطبقة التجاريّة العسكريّة كبار ملاكي المناطق المفتوحة، وتطوّرت متطلبات ترف ورفاه الأسياد وتكاثرت

حاجيات الحروب المتواصلة لغزو مناطق جديدة أو تحسم صراعات سياسيّة بين ولاة الأقاليم أو داخل العائلات الحاكمة أو لقمع حركات التمرّد المناهضة للحكم. وهو ما أعطى العصر العباسي مواصفات الانعطافة الهائلة في الحياة الاقتصادية «للامبراطوريّة» العربية الإسلامية الناشئة. فانتعشت مناطق نفوذ الدولة العبّاسيّة وضمت إليها شعوبا وأقاليم مختلفة من الشرق والغرب. ورغم الدينامية التي عرفتها والمركزة فقد كانت الأقاليم مستقلّة عن السلطة المركزية ولا يربطها بها غير الولاء والجباية. ومع تنامي الصراعات الإقليميّة والمصلحيّة انفصلت العديد من الولايات عن مركز الخلافة : ولاية الظاهريين للفرس شمالا وإمارة الساسانيين في بلاد ما وراء النهرين وإمارة الأداوسة في المغرب والأغالبة في تونس والجزائر، والزياديّة في اليمن وأخيرا مصر.

لقد كان نموّ الإقطاع على صلة وثيقة بانفصال الولايات والعامل الحاسم في تفكك الدولة العبّاسيّة.

إن ادعاء توفّر الوحدة الإقتصاديّة أو تكوّن الأمّة العربيّة في العصر العبّاسي غريب لأنّ الدولة العبّاسيّة لم تضمّ العرب وحدهم بل كان تحت نفوذها الفرس وشعوب شرقيّة أخرى والشعوب المغربيّة مازالت لم تندمج بعد كلّها في الهويّة العربيّة فهل يصحّ، والحال هذه، القول أن الوحدة العربيّة تأسست منذ ذلك الوقت ؟ إن النظام العبّاسي كان عموما قائما على قوانين الإقتصاد الطبيعي تسود فيه الطبقة الإقطاعيّة التجارية العسكريّة. ولم يفض تراكم الثروة فيه إلى خلق سوق قوميّة موحّدة بقدر ما ساعد على تعزيز وتنشيط خطوط التجارة البعيدة ومكّن من فرز طبقي في المجتمع العربي وجرّ شعوبا أخرى إلى الاندماج في الهويّة العربيّة.

ثانيا : اللغة العربيّة واللهجات الإقليمية

يرجع تاريخ ظهور اللغة العربيّة إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة، كانت واحدة من لهجات قبائل شبه الجزيرة العربيّة. وبما أنها كانت في الأساس قبائل رحّلا، اضطرتها ظروف عيشها إلى النشاط التجاري مبكّرا، وهو ما مكن «اللهجة» العربيّة من الإنتشار ومن اكتساب قواعد لغويّة وأصول لكلماتها. كانت «لهجات» القبائل العربيّة حسبما يفيد التاريخ «لهجات» متقاربة، ولم تتحول العربيّة احدى «اللهجات» إلى لغة إلاّ مع ظهور الكتابة. وقبل هذا التاريخ كانت لغة تخاطب وكانت عادات الحفظ والرواية

هي الطاغية في حماية التراث العربي القديم من التلاشي (الخطب، الشعر، الأزجال. . .).

لم تصبح العربيّة لغة مشتركة إلاّ مع بداية انتشار الإسلام. ثمّ جاء النحاة الأوائل (كأبي الأسود الدؤلي) الذين جمعوا اللغة ووضعوا لها قوانين ثمّ صنفوا لها معاجم. وتجدر الملاحظة أن اللغة العربية عرفت منذ أيامها الأولى فروقا في النطق والأصوات والألفاظ والقوالب. وهو عامل يساعد على وجود فوارق في اللهجات الإقليمية التي ظهرت فيما بعد. لكن تبقى ظروف اندماج الشعوب المستعربة عاملا أساسيّا في تكييف اللهجات. واختلافات النطق لم تكن حائلا دون تفاهم القبائل ووصفها أحد علماء اللغة ابن جني قائلا :

«هذا القدر من الخلاف لقلّته ونزواته محتقر غير محتفل به ولا معيب عليه وإنّما هو في شيء من الفروع يسير، فأما الأصول وما عليه العامّة والجمهور فلا خلاف فيه ولا مذهب للتطاحن به. . .».

كان لانتشار الإسلام دور فعال في توحيد اللسان العربي وفي استعراب الأقوام الأخرى التي كانت لها «لغاتها» الخاصة التي بقيت لغة تخاطب في الغالب وبدخول اللغة العربية الأقاليم المغزوة امتزجت بألسنة أقوامها وشعوبها. ففي شمال إفريقيا مثلا حيث كان للبربر السّكان الأصليين لغة تخاطب لم تتحوّل بعد إلى لغة مكتوبة تراجعت أمام اللغة العربيّة وتكيّفت معها وكيّفت بعض عناصرها كي تظهر في شكل لهجة خاصّة بهذا الإقليم أو ذاك. وإذا علمنا أن لغة البربر نفسها كنت تختلف من منطقة الى أخرى يكتمل فهمنا لوجود لهجات مختلفة تونسية وجزائرية ومغربية وموريطانية. . . الخ.

إنّ اللهجات المتفرّعة عن اللغة العربية لا تملك مقوّمات لغة لأنّها تفتقد للنحو والأرومة (أي أصل للكلمات) وتستعير أغلبها من العربيّة اللغة الأمّ وتضيف إليها من «لغتها الأصليّة» أو التي احتكت بها.

نشأت اللهجات العربيّة بصورة عامة «كلغات» تخاطب وتفاهم وتيسر التعبير اليومي، وأهملت حركات الإعراب التي تقوم عليها اللغة العربية واستبدلت القواعد بالمواقع الثابتة للكلمات واكتفت ببعض القواعد النحويّة وتأثرت في صوتياتها بلهجات «الأعاجم» فاستبدلت بعض الأصوات بأخرى أسهل كإبدال الحاء بالهاء أو الضاد بالدال. . الخ.

وأبرز التأثيرات التي دخلت على اللغة العربية وولدت لهجات هي إبدال حروف عربية بحروف أخرى وإجراء تغيير على الصوتيات العربيّة. ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن أوّل لحن سمع بالبادية وأسوأه هو لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق.

وتتمثل ظاهرة اللحن في تغيير بناء الجملة وغياب الإعراب. وبما أن اللغة العربيّة لغة معرّبة أي تحدد وظيفة الكلمة حسب مكانها في الجملة وشكلها (الضم للفاعل والنصب للمفعول به) والدلالة على المفعول بحرف جرّ وتوحيد اسم الموصول (الذي والتي) بكلمة «اللي» مهما كان جنس وعدد الأسماء الدال عليها.

وتشترك كل اللهجات العربيّة في إسقاط الإعراب عن الكلمة واعتماد السّكون لتسهيل عمليّة التخاطب اليومي منها من يعمد الى كسر آخر الكلمة إذا كانت إسما مثلما يجري في لهجات الشرق وهذه الخاصيّة موروثة حسب الأبحاث التي أجراها علماء اللغة عن تأثيرات اللغة الإيرانية.

ومّما تقدّم يتضح جليًا : أوّلا أن اللغة العربيّة وإن كانت عاملا حاسما في ظهور القومية وتطوّرها لا يمكن أن تكون محددة لوحدها في نشأة الأمم، إذ كما رأينا تسبق اللغة وحدة الأرض والإقتصاد. وتخضع الثانية والثالثة لعوامل سياسية ولنمط الإنتاج السائد في المجتمع. فكيف تستقيم إذن وجهة النظر القائلة أن الأمة العربيّة ظهرت إلى الوجود مع اللغة أو مع الإسلام في حين أن بقية الخصائص ما زالت في طور النضج أو هي لم تتأسس بعد ؟

ثانيا : إن مصير اللغة العربيّة لا يمكن أن يكون على شاكلة اللغة اللاتينية وذلك لأنّ اللهجات الإقليمية كما كنّا أشرنا إليه أعلاه متفرّعة عن اللغة العربية ولا يمكنها أن تتطور إلى لغات. ولا تمثل «البلقنة» اتجاه تطور المجتمعات العربيّة بل هي تسير نحو الوحدة حتى وإن كانت عواملها بطيئة. لقد أخذت الطبقة العاملة على عاتقها المهمات الوطنية والديمقراطية التي عجزت البورجوازية الوطنية على تحقيقها.

وختاما أشير إلى أن هذه المساهمة تبقى في حاجة للتطوير والإثراء بالإعتماد على تعميق البحث في تاريخنا وتراثنا وعلى مزيد تملك أدوات وأسلوب التحليل العلمي.

الزهراء، 12 جوان 1988

المراجع :

- يوسف ستالين، الماركسية والمسألة الوطنية والاستعماريّة، نورمان بيتوين

بــاريس 1974

ـ إميل تــوما، الحركات الإجتماعية في الإسلام، دار الفــرابي 1985

ـ غالب هلســا، العــالم مادّة وحـركـة دراســات في الفلسفـة العـربيّة الإسلامية، الطبعة الثالثة 1984 دار الكلمـة.

ـ المستقبــل العــربي عدد 106، 1987/12، مجلّة يصــدرها «مركـز دراسات الوحـدة العربيّة».



شعـوب المـغرب من عصـر ما قبل التاريخ حـتى العهـد البيزنطي

1 ـ مليـون سنة عمر الإنسان في المغرب

تقع المغرب شمال القارّة الافريقية ويحدّها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الشمال المتوسط ومن الجنوب الصحراء الكبرى. أمّا من الشرق فتحدّها منطقة طرابلس التي تعتبر امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية. ويكوّن المغرب بأقسامه السياسية الثلاثة وحدة جغرافية تتمثل في امتداد جبل الأطلس في قلب المغرب من أقصاه الغربي الى أقصاه الشرقي متفرّعة الى سلسلتين : سلسلة شمالية : وبها جبال الريف والأطلس التلّي ـ سلسة جنوبيّة : تمتدّ عبر الصّحراء وتضمّ الأطلس الكبير بالمغرب الاقصى وجبال الزاب والأوراس بالمغرب الأوسط.

وتنحصر بين هاتين السلستين هضاب وسهول عليا. أمّا السّهول فأغلبها ساحليّة إلى جانب سهول حول أهمّ الوديان. وقد كان للإتجاه العامّ لهذه التضاريس أثر على تطوّر تاريخها حيث أنّه سهّل الإتصال بين شرقي البلاد وغربيّها.

ولم تشهد هذه الجغرافيا الموحدة تغييرات ذات بال منذ آلاف السنين. كما أنّ المناخ حافظ على مميّزاته المتوسطية.

هذا هو الاطار الطبيعي الذي عاش فيه الانسان الاول الذي عمّر بلاد المغرب واعتمد على كل ما توفر له، حيث سهّل عليه حركة التنقل من الشرق نحو الغرب وكانت جباله موطنا هاما لحياته ومعيشته وملاذا يتحصن به كل ما أجبرته الضرورات الدفاعية على ذلك.

عرف المغـرب آثار الجنس البشري منذ نصف مليون سنة أو أكثر وقد حاول المـؤرخـون بالإعتـماد على عدّة علوم مختصّـة كعلوم الجيولـوجيا

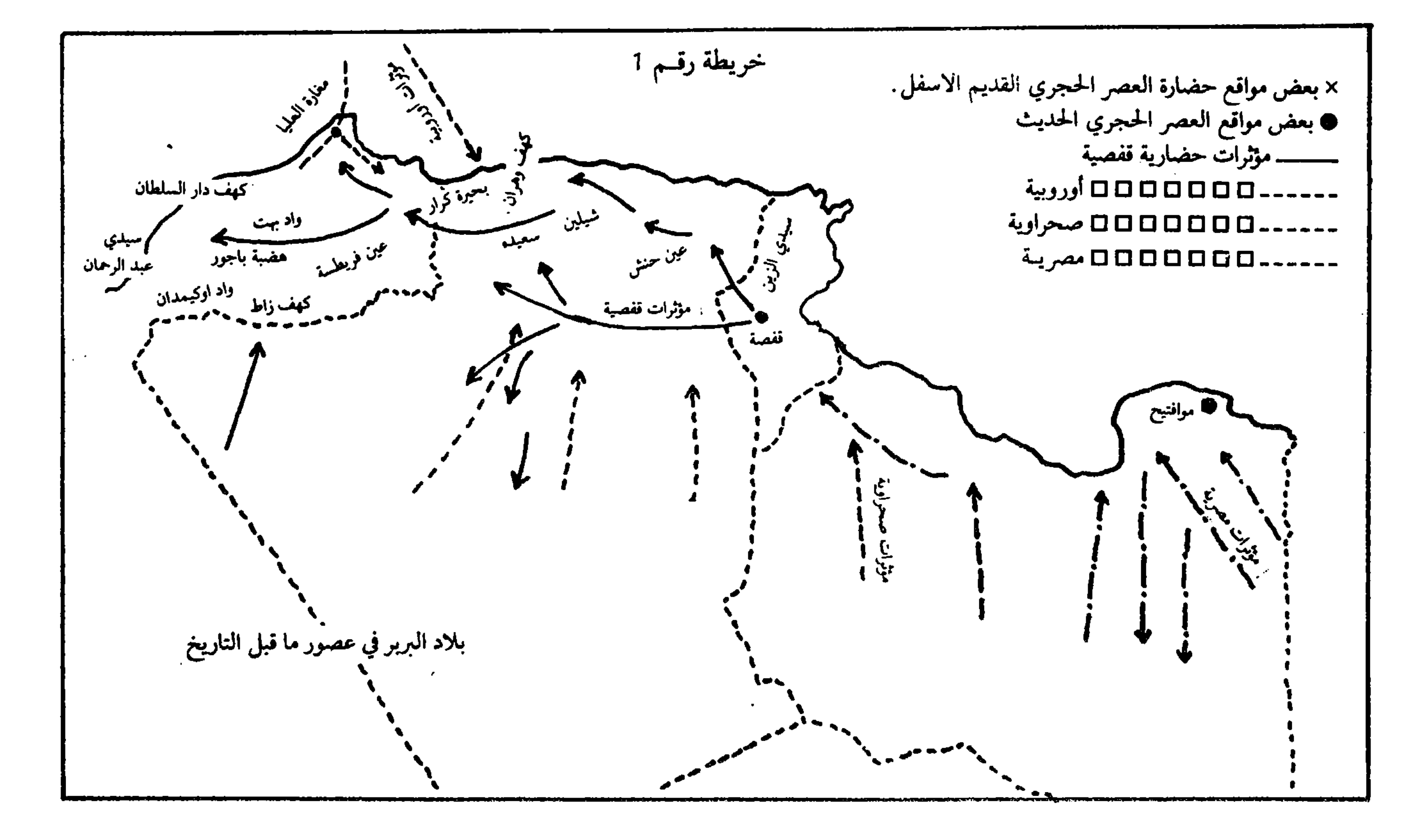
والباليونتولوجيا والأنتروبولوجيا وخاصة على علم الآثار تحديد تواريخ وجود هذا الإنسان وشكله وكيفية عيشه وضبط تطوّره في فترات تاريخية محددة من عصور ما قبل التاريخ فوفّروا لنا بذلك معلومات قيّمة وملاحظات تتفاوت في الأهّمية ـ لتقيدها أو عدم تقيدها بالموضوعية ـ للتعرّف على الإنسان القديم في منطقة المغرب. لقد ربط المؤرّخون تطوّر الإنسان المغربي بحالة أدواته أو وسائل عيشه التي طبعت عصور ما قبل التاريخ. لكنهم لم يقفوا بوضوح عند الفارق بين مرحلتين أساسيتين في حياة الإنسان البدائي وتطوره وهذا ما ينبّه له «مـورقن» «MORGAN» في التقسيم الـذي وضعه. مرّ الإنسان بطورين أساسيّين في عصر ما قبل التاريخ :

ـ «طـور الـوحشيّة» : وهي مرحلة يسود فيها تملك المنتوجات الطبعية الجاهزة والمنتوجات الإصطناعية للإنسان هي أساسا أدواته التي تساعده في هذا التملّك. . . «البـاربـاريـة» (*) هي مرحلة الرّعي والفلاحة وحذق أســاليب تمكّن من إنتــاج أوفــر للمنتجـات الـطبيعية بفضـل النشـاط الإنسـاني (1). . . ويقسم كل واحـدة منهـا الى ثلاث مراحل فرعية دنيا ومتوسطة وعليا يدمج فيها التقسيمات المتعارفة لدى المؤرخين مضيفا لها نقطا التحول النوعية في حياة الإنسان لذلك سنحاول التعرف على تطور الإنسان البدائي المغربي حسب تقسيم «مــورقن».

يغلب لدى المؤرخين الرّأي القائل بأنّ الانسان الاوّل الذي سكن «بلاد المغـرب» ورد عليها من الجهة الشرقيّة وهو من اصل حامي ويعتمد هذا الرّأي على التنقلات الكبرى والتأثيرات الحضارية التي وقع العثور عليها في الحفـريّات الاثريّة كما يوجد رأي آخر وهو أقليّ يؤكد بأنّ الانسان المغربي يرجع الى الاصل الهندو ـ أروبي وذلك لوجود تشابه «حضاري» بين بعض الاثار في المغرب والجزء المتاخم له ونحن نأخذ بالرّأي الذي ذهب اليه اغلب المؤرخين لانه الأرجح والأقرب لمنطق الاشياء في رأينا.

يعود أصل الانسان بالمغرب الى العصر الحجري الاسفل (Paléolitlique) وهو يضمّ حسب تقسيم «مورقن» المرحلة الدنيا والمتوسطة من طور الوحشيّة (L'état sauvage) والذي يعتبر من أهمّ وأطول مراحل تاريخ الانسان عهد

(*) ميّزنا في الكتابة بين الباربارية (Barbarie) وبربرية نسبة الى البربر (les Berbères).



خريطة رقم 1
× بعض مواقع حضارة العصر الحجري القديم الاسفل.
● بعض مواقع العصر الحجري الحديث
مؤثرات حضارية قفصية
أوروبية
صحراوية
مصرية
مغارة العليا
مؤثرات أوروبية
كهف وهران
كهف دار السلطان
بحيرة كرار
سيدي عبد الرحمان
واد بهت
هضبة باجور
عين فريطسة
شيلين
سعيده
عين حنش
سيدي الزين
واد اوكيمدان
كهف زاط
مؤثرات قفصية
قفصة
موافتيح
مؤثرات صحراوية
مؤثرات مصرية
بلاد البربر في عصور ما قبل التاريخ

طفولته حيث كان يعيش في الاودية والسّهول وقرب العيون والواحات ويلتجىء الى الجبال والكهوف كلّما قست عليه الطّبيعة. لقد كان يعيش من التقاط الثمار والحشائش، وتميّزت هذه الفترة الاولى بابتداع لغة تخاطب لا يملك المؤرخون آثارا دالّة عليها. لكنّ خروج الانسان من طور الحيوانيّة كان يفترض تغييرات في كيفيّة تنظيم هذه «القطعان» من البشر. برزت هذه الضرورة منذ بداية صنعه لادوات تساعده على الصّيد من أجل توفير طعام اوفر لسدّ حاجياته الغذائية. فكانت الحجارة المشذّبة في اتجاه واحد ثمّ ظهرت في المرحلة الاشوليّة الحجارة المشذّبة من الوجهين (BIFACE). وبالرّغم من هذا التطوّر فإنّ الصيد لم يصبح المورد الاساسي للعيش لان الادوات المستعملة لهذا الغرض بقيت خشنة لا تفي بالحاجة. وقد عثر على أهّم آثار هذه المرحلة في:

- مناطق ساحليّة: سيدي عبد الرحمان قرب مدينة الدّار البيضاء - على مقربة من الأنهار خاصّة في وزدات قرب تلمسان على ضفّة وادي الصفصاف وفي سيدي الزين قرب الكاف.
- على مقربة من العيون والآبار كموقع عين الحنش في مقاطعة قسنطينة وعين برمة في الجنوب التّونسي وبالمغرب الأقصى.
- في مواقع صحراويّة وجدت بها أدوات حجريّة وبقايا عظام حيوانات وفؤوس يدويّة وعظام إنسانيّة بالرديّف في الجنوب الغربي التّونسي مثلا. ولا يصعب القول، كما يلاحظ ذلك رشيد النّاظوري، بوجود سمة أساسيّة واحدة لحالة تطوّر الإنسان في كافّة هذه المواقع المنتشرة في أنحاء المغرب (2)

واصل الإنسان البدائي المغربي تقدمه على قاعدة الخبرات التي تجمعت لديه ليدخل المرحلة العليا للوحشيّة والتي تضمّ العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى وتتميّز بصناعة الشّظايا وبوجود مراكز «حضارية» كما يلاحظ ذلك الأستاذ «مالك برني» ولنا على سبيل المثال مركز بئر العاتي بتونس وبرج السبايكة في نواحي جبل درميرة وموقع وادي درنة بليبيا. لقد تمّ العثور على آثار «للحضارة العتيريّة» في ليبيا وكذلك بالمغرب في جبال الأطلس و«الحضارة العتيرية» لم تقتصر على صناعة الشظايا وإنّما تعدّتها إلى صناعة المكاشط الجانبية ورؤوس السّهام والأزاميل وقد تدرجت شيئا فشيئا إلى صنع أسلحة حجريّة دقيقة تعرف بإسم الأدوات الميكروليثية وقد عثر على هذا النّوع من الأسلحة منتشرا في الجبل الأخضر حتّى ساحل المحيط الأطلسي. ويمكن إعتبار منطقة الجبل الأخضر ممثلة لهذه المرحلة. وتميزت أيضا «بالحضارة

القفصيّة» التي ظهرت في منطقة قفصة بالجنوب التونسي والّتي أطلق عليها العلماء الفرنسيّون اِسم الحلزونيّات وهي التّلال التي تجمعت فيهـا بقايا العظام وبصفة خاصّة القواقع. وتميزت هذه المرحلة بالنّقوش الّتي تعبّر عن مشاغل فكريّة خاصّة بهذا الانسان (موقع المكتا بالجنوب التّونسي) وكذلك الحجر الجيري المشكّل في أشكال معيّنة قد تكون تمثّل أقنعة أو أواني طعام. لكنّ الثّابت في هذه المرحلة هو إتقان الإنسان البدائي المغربي لسلاح حدّد تحكّمـه في موارد عيشـه. وعنـدهـا اِنتقـل من الـوحشجية إلى البـاربارية (BARBARIE) الّتي تمثل هي الأخرى مرحلة حاسمة في تطوّره.

2) هل عرف البربر عصر الحديد ؟

لقد اِعتبر الناظوري «العصر الحجري الحديث» نقلة نحو «ثورة إنتاج الـطّعام» لكنّ السّمات الّتي يحاول اِعتمادها للقول بأنّه عصر الإنتقال «إلى الحضارة» (CIVILISATION) غير صائب لأنّ المظاهر الّتي اِعتمدها ليست سوى تعبير عن مرحلة دنيا ومتـوسّـطة من «البـاربـرية» كان فيها تطوّر النّشاط الإنساني يخضع للظّروف الطبيعية الّتي يعيش فيها.

انتقل الإنسان المغربي، لّما عرف صناعة الفخّار وتدجين الحيوانات الّتي يصطادها، إلى الرّعي ولم يعتن بالزّراعة إلاّ في مناطق محدودة وذلك بحكم الطبيعة والمناخ بينما نرى أخاه المشرقي يوجّه عنايته الأولى إلى الزّراعة.

إنّ السكّـان القـدامى للمغـرب لم يعرفوا المرحلة العليا من «الباربريّة» (عصر الحـديد) وذلك حسب المعطيات المتوفّرة إلى حدّ الآن، وحتّى بقية المعادن (كالنّحاس مثلا) فإنّ العلماء ليسوا على يقين من أنّ هؤلاء قد عرفوها.

لقـد عرف الشّرق الأدنى هذه المـرحلة (المـرحلة الـدنيا والوسطى من «الباربارية») قبل المغرب. فبينما تبدأ هذه المرحلة في الشّرق حوالي منتصف الألف السادسة ق.م. وتتواصل حتّى منتصف الألف الرّابعة ق.م حيث يبدأ عصر النّحاس، نجدها في المغرب تبدأ حوالي منتصف الألف الخامسة ق.م حتى 1200 ق.م بل وفي بعض المناطق تصل إلى حدود العهد الرّوماني.

ويمكننا القول بأنّ البربر بما أنّهم لم يعرفوا المرحلة من «الباربارية». لم يشهدوا التقسيم الكبير الأوّل للعمل بين الزّراعة والرّعي ورغم أنّهم لم يكونوا

جاهلين بها تماما كما تثبته بعض المواقع الأثريّة وخاصّة في الكهوف الساحلية فإنّ البربر بقوا في الأساس رعاة يستقرّون تارة وينتقلون أخرى نحو المراعي والسّهول الشّماليّة صيفا ونحو السّباسب شتاء.

عرف سكّان المغرب مثل المجتمعات البدائية الأخرى الملكية الجماعيّة لوسائل الإنتاج وخاصّة الأرض سواء بالنسبة للزراعة أو أماكن الرّعي . كما عرفت النّظام الشّيوعي البدائي المتمثل خاصة في قسمة متوازنة لثمرة عمل الجميع بين أفراد المجموعة الواحدة. وانقسموا فيما بعد بفعل التأثيرات الفينيقية التي وصلتهم عن طريق البحر والتأثيرات الفرعونية عن طريق ليبيا إلى مجموعات من البدو وأخرى من الحضر (المجموعات المستقرّة)، تتميّزان في وسائل عيشهما وفي نمط حياتهما.

لقد كان الرّعاة يلتجئون إلى الكهوف في بعض الأحيان يسكنون بيوتا من الوبر يسهل نقلها، أمّا الحضر فإنّهم كانوا يسكنون أكواخا من الحصر أو من الطين الجاف وتجمّعوا في قرى كانت تُعدُّ بالمئات وشيّدوا ملاجىء هي نوع من القلاع لحماية ثرواتهم أمام هجمات أعدائهم من البدو.

ومع تزايد أفراد المجموعات ونموّ إمكانياتها المعيشية ظهرت العائلة الأغانيّة (La famille Agnatique) كقاعدة للمجتمع البربري وهي مجموعة قائمة على الذكور من سلالة واحدة للأب الذي أصبح يملك نفوذا واسعا على أبنائه. ولم يعرف المجتمع البربري على ما يبدو العائلة الأموميّة والأبحاث الموجودة إلى حدّ الآن غير كافية للتدليل على ذلك. ثم بأدت العائلة الأغانية تتجمّع أمام «ضرورات الحياة الرعويّة والزراعيّة» وظهر بذلك شيء من التنظيم البدائي للمجتمع البربري في القرى التي «استحالت إلى جمهوريّات صغيرة» تخضع لسلطة مجلس الشيوخ الذي يدير شؤون المجموعة حسب العادة والعرف. أما الرعاة فقد تجمّعوا لحماية المراعي وكوّنوا في الغالب تجمّعات من الرّحل. وأخيرا تشكّلت القبيلة التي تمثّل تنوّعا في التنظيم القاعدي لهذه التجمّعات البشرية وقد أصبح بالإمكان أن تتركب القبيلة من رعاة أو حضر أو من مزيج من الإثنين وداخلها بإمكان العائلة الأغانيّة أن تحافظ على إستقلاليتها. وهذا التنظيم المبني على العصبية شكّل قاعدة موضوعيّة للتصارع القبلي (بين القبائل أو بين الفروع داخل كلّ قبيلة) أو التحالف أحيانا في شكل اتّجاه قبلي وتعينّ «اغليدا» على رأسها يفرض سيطرته على منطقة كاملة لكن سرعان ما يغيب هذا النفوذ أمام تحالف أو صراع جديدين.

هذا هو الطور الذي كان عليه البربر في تونس وفي بقية شمال إفريقيا عندما بدأت تتوافد عليه حضارات خارجية ستدخل به العصر التاريخي.

3) قرطاج تمدّ يدها إلى البربر وتبني حضارتها على السواحل

إنّ أوّل من دخل شمال إفريقيا من أصحاب هذه الحضارات هم الفينيقيّون عن طريق البحر. ما هي التغييرات التي طرأت بمجيئهم على بلاد المغرب ؟ وكيف كان ردّ فعل القبائل البربريّة ؟

قدم الفينيقيّون إلى قرطاج من الشرق وكانوا أصحاب حضارة متقدّمة يحكيها تاريخ المشرق وتحكيها قرطاج بعد تأسيسها. لقد عرف الفينيقيّون العصر التاريخي قبل «سكان المغرب» بعدة قرون وعرفوا بذلك المجتمع الطبقي وتمركزت الثروة بين أيدي الأسياد والتّجار فتكوّنت مدن هامّة محصّنة كصور وصيدا تتعاطى التجارة البحرية لوفرة البضائع وإزدهار الصناعات وخاصة منها صناعة الاقمشة التي تطورت ونمت على كاهل العبيد والفقراء من السكان «الأحرار» إنّ ضرورة توفير إنتاج أكبر زادت في حاجتهم إلى الموادّ الأوّلية التي استجلبوها من مناطق بعيدة وخاصة من الحوض الغربي للبحر المتوسط. لذلك كانت أغلب المراكز التي أسسوها ساحليّة وهي عبارة عن موانىء صغيرة، والذي دفع بهم إلى تأسيس هذه المراكز هو الضغط الذي وجدوه من الشعوب الهندو ـ أوربيّة الزاحفة في الألف الثانية ق.م على الشرق الأدنى فكانت تشكل خطرا داهما لابدّ من إعداد العدة له. وقد يكون الفينيقيون بدأوا بتأسيس أوتيكا سنة 1101 ق.م ثمّ قرطاج سنة 814 ق.م وذلك على يد فينيقيين قدموا من صور في عهد الملك «بجماليون» والأساطير عديدة في هذا الشأن.

وتميّزت العلاقات الأولى بين الفينيقيين والبربر بكونها لم تأخذ طابعا عدائيّا بل وجدت فيها المبادلات التجارية، خاصة وأنّ الفينيقيين بقوا عند السواحل ولم يحاولوا التوغّل داخل البلاد. فبدأت قرطاج ذات الموقع الإستراتيجي تأخذ مكان الصدارة في المدن الفينيقية بل وعوضت صور وبسطت نفوذها عليها إلى أن تكونت في المنتصف الثاني للقرن السادس قبل الميلاد الدولة القرطاجية. وقد لعبت الأسر الثريّة دورا هاما في بناء سلطة طبقة الأرستقراطية وخاصة عائلة «ماغون» التي يعود نسبها إلى قائد الجيش القرطاجي الذي كوّن جيشا قويّا من المرتزقة بتألّف أغلب مشاته من عناصر بربريّة ليبيّة والفرسان من النوميديين والأروبيّين.

وقد سمحت السلطة القرطاجيّة لبعض مستعمراتها العديدة الممتدة من السواحل الليبية إلى السواحل المغربية بنوع من الإستقلال مثال لمطة وأوتيكة وقادس وفرضت على البقية سيطرة مشدّدة. ولم تتردّد في ترحيل السكان عن مناطق شاسعة أو فرض ضرائب مرهقة تؤدّي بهم إلى العبوديّة. ويزداد توغّل القرطاجيّين في بلاد المغرب خاصّة بعد انهزامهم أمام اليونان في معركة «هيمار» بصقلية سنة 480 ق.م التي كبدتهم خسائر جمّة تحمّل تبعاتها البربر حيث أنّ الطبقة الأرستقراطية إقتطعت أراضي شاسعة فرضت فيها سلطاتها. ومنذ ذلك العهد بدأ يظهر في قرطاج نفوذ ملاّكي الأراضي وبدأ شكل السلطة يتغيّر نسبيًا إذ أصبح «جمهوريًا» (أو مجالسيًا) وتواصل العمل بهذا النظام حتى بداية القرن الثالث ق.م حيث استقرّت السلطة بين يدي عائلة «بَرْقَة».

كانت الطبقات الحاكمة في قرطاج تفرض سلطتها على الطبقات الشعبية التي - وإن كانت المعلومات الخاصّة بها قيلة - تتكون من «المواطنين» ومن الموالي والعبيد، عن طريق أداتها الجبارة - الجيش - وعن طريق النفوذ الواسع الذي يتمتع به الأسياد والعائلات الثريّة.

وتملك طبقة الأسياد والأرستقراطية الأراضي الشاسعة في المنطقة التابعة لقرطاج مباشرة، يعمل بها البربر الذين انتزعت منهم أراضيهم كمستخدمين أو كعبيد (يذكر ذلك «ماغون» في كتابه الخاصّ بالفلاحة والمكوّن من 28 جزء). لقد ميّزت قرطاج بين البربر فقلّدت أعيان القبائل قيادة الخيالة ورمت بالمستعبدين والمرتزقة في صفوف المشاة. كما أنّها أبقت لبعض الأعيان من النوميديّين أملاكهم (وعثر الاستاذ «فنتر» قرب كركوان على نقيشة - Inocriptions Fumeraires - تحمل أسماء عائلات أرستقراطية نوميدية). أمّا بالدّاخل فإنّنا نجد في المناطق التي توصلت قرطاج الى بسط نفوذها عليها نفس السياسة، إذ كان عامّة البربر مستعبدين أو مسخرين لا ينمتعون «بالمواطنة» بينما تمتع رؤساء القبائل بإمتيازات وارتبطوا بالسلطة. ومن هنا نطرح قضية علاقة القرطاجيين بالبربر ومدى تأثيرها على المجتمع البربري.

كنّا رأينا أن البربر لما إتّصلوا بالفينيقيين، كانوا يمرّون بالمرحلة الوسطى من «البارباريّة» ومكنهم ذلك من الدخول الى العصر التاريخي بصفة تدريجية، فكلّما اتسعت رقعة النفوذ القرطاجي بدأت التأثيرات الإجتماعية والإقتصادية والحضارية ومن أبرزها فرض التمايز الطبقي في المجتمع البدائي. فاستعبدت الأرستقراطية القرطاجية وجرّت إلى صفوف المشاة في

الجيش أفراد القبائل والقرى التي اغتصبت أراضيها وأفردت رؤساء القبائل بالإمتيازات في تملك الأراضي والرتب العسكريّة . . الخ . أمّا القبائل البعيدة عن النفوذ المباشر لقرطاج فبقيت محصّنة من هذه التأثيرات المفروضة ولا تتلقّى إلاّ ما طاب لها منها.

وقد حاول البربر من المستعبدين وخاصّة في صفوف الجيش الثورة على الحكم القرطاجي لكنهم لم يصلوا الى ذلك الحد بالرغم من الاضطهاد والاستغلال الذي كان مسلطا عليهم ولم تسع القبائل التي لم تقع تحت سلطان قرطاج الى الدّفاع عن ذاتيتها إلاّ بعد وقت طويل.

4 ـ «أغاليد» على رأس ممالك غير مستقرّة

إنّ النظام القبلي السائد والقائم على العصبيّة حيث «تنفرد كل قبيلة بعصبيتها منعزلة داخل مناطق محدودة» جعل الوحدة التي تربط بين القبائل لا تعمّر. ومع ذلك حاول قادة القبائل وشيوخها تكوين «دولة بربرية» مستغلين غضب مجموعة البرابرة سواء من الفلاحين الذي أثقلت كاهلهم بالضرائب لتفي بحاجياتها العسكريّة بحروبها المتعددة ضدّ اليونان والرّومان أو من الجيوش المرتزقة الغاضبة **فبدأو يتجمّعون في مجموعات من القبائل تنظم كل منها في شكل اتّحاد قبلي إقليمي يرأسه أحد قادتها ويسمّى «أغليدا»** ورغم أنّ العصبية القبلية لا تتقبل هذه الإتحادات التي نشأت منذ منتصف القرن الثاني من العصر القرطاجي بسهولة «كانت مملكتا أسولة ومازيسولة تقتسمان في القرن الثالث بين الملويّة والأرض البونيقية الآهلة بالبربر الذين كان يسميهم الرومان والإغريق ـ النوميديين ـ وهي لفظة قد تكون مأخوذة عن لهجة البلاد نفسها ومن الممكن أن تكون قبائل مازيسولة التي هي بمثابة الخلية الأمّ للجامعة منحدرة من المغرب الأقصى وقبيلة ماسولة من الأوراس» (2).

تعاملت قرطاج مع أغليد نوميديا ليفاكس الذي تزوج بنت هزدربال. وقد حاول هذا الاخير بالاعتماد على قرطاج غزو مملكة ماسولة إلاّ أن ماسنيسا ألتجأ إلى الرومان وتحالف مع شيبون الإفريقي فأعاد مملكة والده واحتل نوميديا وحقق بذلك بناء دولة بربرية تزيد دحر قرطاج في المناطق التي بسطت عليها نفوذها وكان لا يريد أيضا أن يقع بين أيدي الرومان.

5) ماسنيسا : إفريقيّة للأفارقة

يذكر المؤرخ «تيت ليف» أنا ماسنيسا كان يصرّح بأنّ إفريقيّة يجب أن تكون للإفريقيين. وقد عمل ماسنيسا على تحضير البدو وعلى الرفع من قدراتهم الاقتصادية وعلى تطوير نمط عيشهم. ويقول «بوليب» Polybe كما نقله شارل أندري جوليان «هذا أعظم وأعجب ما قام به ماسنيسا، كانت نوميديا قبله لا فائدة ترجى منها وكانت تعتبر بحكم طبيعتها قاحلة لا تنتج شيئا فهو الأوّل والوحيد الذي أبان بالكاشف أنه بإمكانها أن تدرّ بجميع الخيرات مثل أيّة مقاطعة أخرى لأنّه أحيى أراضي شاسعة فأخصبت إخصابا». كما عمل على تجميع الفلاّحين برئاسة أغاليد وبذلك تكونت مدن بربريّة بدأت تشكّل مراكز استقطاب على جميع المستويات وهي ماتزال في بداية طورها الحضري. **إنّ تكوين أوّل دولة في المجتمع البربري هو تعبير في حدّ ذاته على انقسامه الى طبقتين متضادّتي المصالح : طبقة العائلات العائلات الثريّة وشيوخ القبائل والأغاليد من جهة ومن طبقة العبيد والمسخّرين وبقية أعضاء القبائل من جهة أخرى. إنّ هتين الطبقتين مازالتا مشدودتين بقانون العصبية القبلية التي تتدخل بواسطة الطبقة المحظوظة لإخضاع الطبقة المغلوبة قصد خدمة أغراضها وتحقيق مطامحها الخاصّة. وتستغلّه أحيانا الطبقات المغلوبة للثورة على حكم جائر وذلك لأنّ العلاقات القبليّة بقيت محافظة على أوجه عديدة من الديمقراطيّة البدائيّة.**

يمكننا القول إذا بأنّ المضطهدين تحصّنوا بهذه العصبيّة وبما تؤدي إليه من تحالفات للدفاع عن ذاتهم ورفض للإستقلال والإستعباد. فترى مثلا أنّ هذه الطبقة هي التي حافظت علي لغتها الأم وحمت عقيدتها وتقاليدها وحتى إن أخذت آلهتها عن قرطاج فإنها قد بربرتها.

أمّا الطبقة المحظوظة فقد أصبحت تتكلم اللغة البونيقية وتقلد قرينتها القرطاجية في اللباس وطريقة العيش واندمجت في حضارتها ما عدا الجزء المتواجد منها في المناطق البعيدة الذي ظلّ مرتبطا بالقبيلة وبعاداتها وتقاليدها ولم يذق بعد لذيذ خيرات طبقته.

لكن هذه المدن البربرية بما فيها «سيرتة» لم تتمكّن من بلوغ ما وصلت إليه مدن في مجتمعات أخرى فرضت سيطرتها على الريف وعلى المدن المجاورة لتكوين دولة قويّة تكون أداة طبقة أرستقراطية تجارية تسيطر على دواليب الحياة الإقتصاديّة والسّياسيّة والثّقافية والإجتماعية.

أشعـرت محاولـة ماسنيسا التي تثملتَ في محاولة فرض نفوذه على كامل المغـرب؛ الرّومان بالخطر الذي تمثله هذه الدولة الفتيّة وشعبها التوّاق إلى المدنيّة. إنّهم يعرفون البربر معرفة جيّدة في حروبهم الطّويلة ضدّ قرطاج وعلى الخصوص الحروب البونيقيّة الثلاث، ولذلك وبعد وفاة ماسنيسا سنة 149 ق.م أثـاروا الشقـاق في صفـوف قادة نوميديا فتصـادم «جـوغـرطـة» بـ «هيمسـال» وقضى عليه فالتجأ «أذربعل» الى الرّومان ونسج جوغرطة على منواله فتدخّلوا سنة 116 ق.م بتقسيم نوميديا إلى جزئين، الشرقي يحكمه «أذربَعْل» ويحده من الشرق قرطاج ومن الغرب سيرته وجزء غربي يمتدّ حتى وادي «الملويّة» تحت حكم «جوغرطة».

لكنّ هذا الأخير رفض التقسيم وعمل على توحيد المملكة النوميديّة من جديد، ودخل سيرتة سنة 113 ق.م فأعلنت عليه روما حربا تواصلت من سنة 111 ق.م الى 105 ق.م.

لقد وجد الجيش الروماني صعوبة في مواجهة البربر في البداية وخاصّة أمام تحالف «جوغرطة» مع ملك موريطانيا «بوخوس الأوّل» ومع قبائل «جدالة» الجنـوبية. وسـارالموريون والنوميديون ضدّ الرّومان. لكنّ القائد الروماني ومسـاعـده «سيلا» تمكّنـا من فكّ هذا التحالف بإرتشاء «بوخوس الأوّل» ومنحه لقب «حليف الشعب الروماني» مع إسناده الثلث الغربي من نوميديا. أمّـا جزءهـا الشرقي فأسنـده الرّومان إلى «غـودا» ابن «مستنبعل» (وكـان «غـودا» ضعيف العقل). وبذلك تمكنت روما من القضاء على إمكانيّة وجود دولة نوميدية قويّة تزاحمها.

أعلنت روما ـ قرطاج ـ مقاطعة رومانيّة ـ (Provin..cia Africa) ـ وقلّصت حدودها وعهدت بحكمها إلى «بريطور» (يعينّ لمدّة سنة) وأصبح يحكمها فيما بعـد ـ بروقنصـل ـ (Priconsul) مثل بقيّة الولايات الرومانية أمّا بقية المدن الفينيقيّة، فإنّ التي تنكّرت لقرطاج وتحالفت مع رومـا منحت لقب ـ مُدن حـرّة ـ «كـأوتيكـا» و«حَضرَمـوت،» و«لمطـة» و«راس ديمـاس» و«أشـولـة» و«أوسلت» و«تـودلاس». كما تحصّلت مدن أخـرى فيها بعـد على لقب «صديقة الشعب الروماني» كمدينة «لبـدة» (Kepcis Magna).

وبهـذه الصورة انهارت قرطاج وقتلت في المهد إمكانية قيام دولة بربرية تقف في وجه التوسّع الرّوماني وفي مثل هذه الظّروف بدأ العصر الرّوماني في منطقة المغرب.

6) الإحتـــلال الروماني : عصـــر المعمرين

سقطت قرطاج وأعلنها الرّومان «أرضا ملعونة» وأخذت مكانها روما في البحر المتوسّط وفي «بلاد المغرب» التي قسّمتها الى قسمين : **أوّلا** : الولاية الإفريقيّة وتضمّ المنطقة المتاخمة لقرطاج، وقد يكون حكمها الرومان بصفة كاملة وهجّروا واستعبدوا أهلها.

ثانيا : الممالك البربريّة وهي ثلاث : أ ـ نوميديـا وعاصمتها «قرطة» (قسنطينة).

ب ـ موريطانا القيصرية وتقع في المنطقة الغربيّة لـ «الجزائر» وعاصمتها شارشال.

ج ـ موريطانا الطنجيّة وعاصمتها طنجـة.

وبقيت تتحينّ الفرصة لوضع يدها على كامل المنطقة لكنّ أزمتها العسيرة أصبحت تشدّد عليها الخناق. تولّدت هذه الأزمة عن نظام العمل العبودي الذي يحطّم القوّة الرئيسية في الإنتاج المكوّنة من العبيد وكذلك من احتدام الصّراع بين الملكيّة الكبيرة والصغيرة المثقّلة بالضرائب والتي أدّت إلى تفقير جمهور المنتجين الأحرار والفلاحين والحرفيّين الصغار كما أن تعدد الجبهات الحربية (إيطاليا، إسبانيا، المغرب، المشرق) دفع بقيادة روما إلى المزيد من تجنيد الأحرار العاملين في الزّراعة والصناعة الذين يطمعون في مكافآت عند تسريحهم من الجندية.

وولّدت الأوضاع الإقتصادية والعسكريّة تفجرات إجتماعيّة كبيرة كثورات العبيد العديدة وأهمّها التي قادها «سبارتاكوس» (74 ـ 71 ق.م) والتي انضمّ إليها الفلاّحون الفقراء فقمعها الأسياد قمعا أسود ونصبوا لهم المشانق في كلّ حيّ ونكلوا بهم شرّ تنكيل، ولم تكن هذه الإنتفاضات المتكرّرة لتمرّ دون تأثير في السياسـة تترجم عنه محاولة الإستجابة لجزء من مطالب الفلاّحين وعلى الأخصّ مطلب تقسيم الأرض. فوجـد أسياد رومـا الحلّ في بلاد المغرب وعملوا بإقتراح (Cainsgrachus) ممثّـل الشعب (Tribun de la Plèbe) الدّاعي إلى توزيع أراضي قرطاج على المعمّرين وذلك طبقا لقانون صادق عليه مجلس الشيوخ سنـة 123 ق.م وكان عدد المعمّرين (6000) ومساحة الأراضي المـوزعـة 150.000 هكتار قسّمت الى قطع مساحة كلّ واحدة مها 50 هكتارا لكنّ الطبقة الأرستقراطية بقيت معارضة لهذا المشروع وتمكّنت من إلغائه سنة 121 ق.م. وأجبرت المعمرين على بيع أراضيهم إليها. فتكوّنت

مزارع شاسعة يخدما الأهالي تحت إشراف ناضر. لكن بقيت بالإمبراطورية أملاك عمومية واسعة اقتطعت جزء منها إلى معمرين جدد من قدماء جند «ماريوس» سنة 103 ق.م. إلى المدن الحرة وباعت قطعا أخرى إلى مواطنين رومانيين مع استبقاء حقّها في الملكيّة ,ويتكرّس ذلك في الأداءات الموظفة على هذه الأراضي. كما أجّرت الأراضي التي لم تفرّط فيها لمربيّ المواشي والمزارعين مقابل معلوم يستخلصه الجباة.

وفي نهاية الأمر لم يبق للدّولة إلاّ قسم ضئيل في ممتلكاتها فتمركزت الملكية شيئا فشيئا بين أيدي ملاّكين كبار، وأصبحت مجرّد أداة تحافظ على ملكيتهم وتنظم الجباية لصالحهم وتصون القوانين.. الخ.

إنّ فشل سعي روما لحلّ أزمتها دفع بتناقضاتها الداخلية نحو إحتدام اعنف، أدّى بها في النهاية إلى تغيير شكل الحكم فتحوّل من نظام «جمهوري» إلى نظام إمبراطوري كما أدّى أيضا الى احتلال المغرب عسكريّا حتى يتمّ استثماره لصالح الأباطرة والعائلات الثريّة الرّومانية والبربريّة التي اندمجت بها. وهكذا دخل الإحتلال الرّوماني للمغرب مرحلة جديدة وحاسمة.

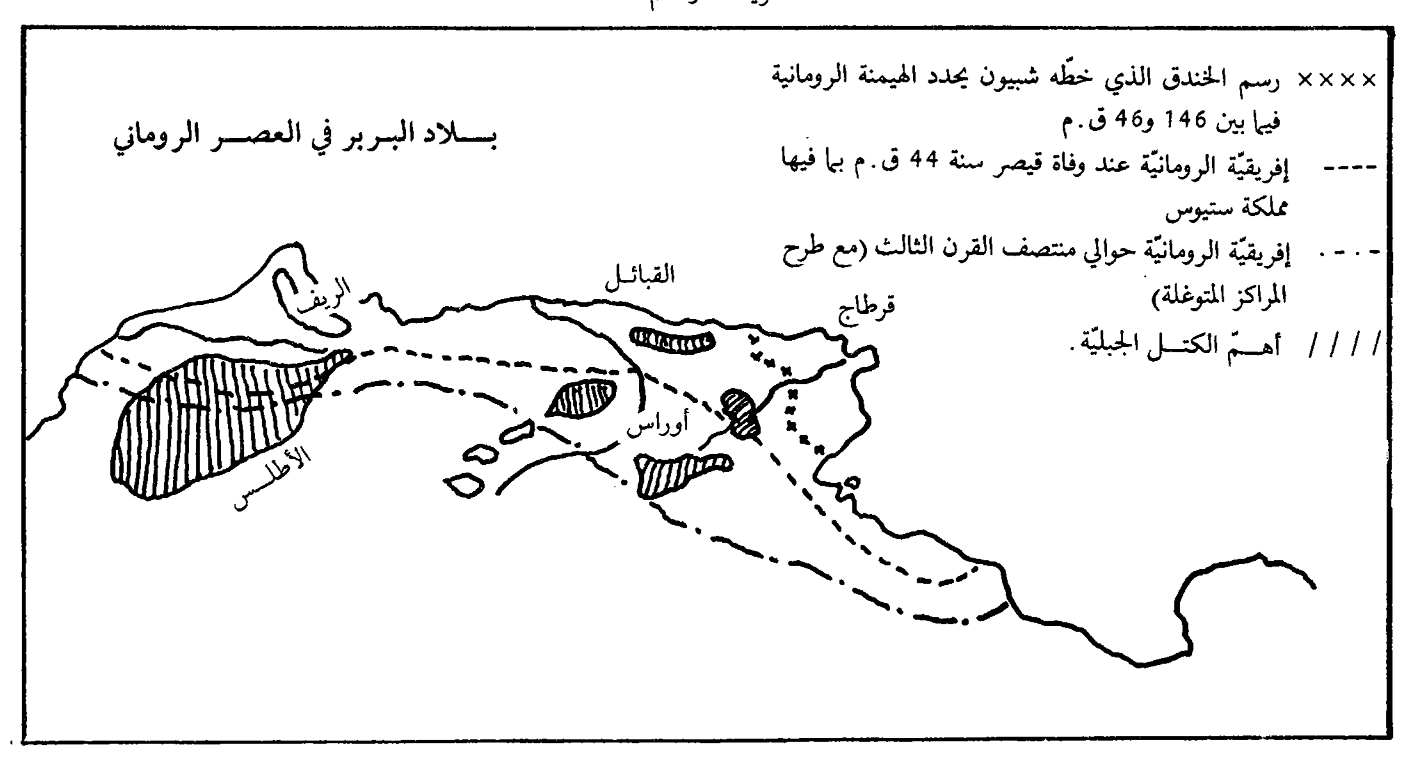
7) الأرستقراطية البربريّة تدخل الحياة السياسيّة في روما

فماذا عن علاقة قادة البربر بما كان يجري في روما ؟

لقد كنّا أوضحنا أهداف الرّومان في المغرب وتدخّلهم لتقسيم نوميديا وإضعاف القوّة البربريّة المنظمة في دولة كبيرة كما كنّا أشرنا إلى سلوك أغلب القادة البرابرة سياسة المراهنة على شقّ من الأرستقراطية الرومانية يعلنون عليه تمرّدهم في بعض الأحيان، كما فعل ذلك «ماسنيسا» و«جوغرطة» بمن بعده، ويصل الأمر بهؤلاء القادة إلى الوقوف الى جانب أحد الأطراف الرّومانيّة المتنازعة فيما بينها كالذي وقع بين «بومبيوس» (Pompée) و«يوليوس قيصر» حيث أنّ يوبا الأوّل ملك نوميديا الشرقية و«ماسنيسا» الثاني تحالفا مع بومبيوس أمّا بوخوس فقد تحالف مع «يوليوس قيصر» وبهذه الصورة اصبحت الممالك البربرية طرفا في النزاع بين المتصارعين على الحكم وذلك بهدف الحصول على امتيازات عندما يكون النصر حلفائهم. وانتهى هذا النّزاع بانتصار قيصر وجيوشه سنة 46 ق.م في «تابسوس» (راس ديماس).

لقد كان العامل السياسي البارز في تحويل سياسة روما المغربيّة هو انتصار «يوليوس قيصر» على منافسه بومبيوس حيث غيّرت نظام إفريقية تغييرا عميقا

خريطة رقم 2



بلاد البربر في العصر الروماني
×××× رسم الخندق الذي خطّه شبيون يحدد الهيمنة الرومانية فيما بين 146 و46 ق.م
---- إفريقيّة الرومانيّة عند وفاة قيصر سنة 44 ق.م بما فيها مملكة ستيوس
-·-· إفريقيّة الرومانيّة حوالي منتصف القرن الثالث (مع طرح المراكز المتوغلة)
//// أهمّ الكتل الجبليّة.
القبائل
قرطاج
الريف
أوراس
الأطلس

فأزالت مملكتي «يوبـا» و«مسنيسـا الثـاني» حليفي بوميبـوس وأقامت ولاية رومانية جديدة حملت إسم ولاية إفريقية الجديدة (Africa Nova) يحدّهـا من الشرق (Fossa Regia) ومن الغـرب خطّ يمرّ غرب عنـابة (Hippo Regins) وغربي «قالمـة» (Calama) وكوفيء بوخوس الأصغر بتوسيع مملكته نحو الشرق حتى الوادي الكبير. وأضيفت الأراضي الملوكيّة إلى الأراضي العامّة. وكان قيصر يريد تأسيس مستعمرة في قرطاج. (Colonia Julia Carthgo) وتمّ ذلك خارج «المنطقة الملعونة» ربّمـا في نفس السنة التي اغتيل فيها. ويغلب على الـظنّ أنّ قيصر هو الذي أسّس مستعمرات «قربة» (Curubus) و«قليبيـا» (Clupea) و«هـنشيـر مراسية» (Carpis) و«بنـــزرت» (Hippo Darrytus) والجمّ (Thydrus).

ولّمـا اغتيل «يوليوس قيصر» سنة 44 ق.م حاول البربر انتهاز الفرصة للتخلّص من الممالك البربريّة التي استحدثت في عهده، وقادهم أرابيون إبن ماسنيسا الأوّل، لكنّ الرّومـان قضوا على هذه المحاولة سنة 38 ق.م وبدأوا يعملون على «رومنـة كلّ المـمالـك الـبربـريّة وبعـد وفـاة «بـوخوس» عينّ «أكتافيوس» حاكما رومانيّا على المملكة الموريطانية منتهزا عدم وجود وريث للعرش وأسّس مستعمرات بموريطانيا بالقرب من موانىء قديمة (جيجلي ورجاية وسيدي إبراهيم..) ومستعمرات أخرى داخليّة.

كانت سياسة المستعمرات تطبّق على حساب قبائل عديدة دفعت بها نحو مناطق غالبا ما كانت فقيرة وجدباء فثارت من أجل استرجاع أراضيها بين سنة 17 و24 ق.م بقيادة «تكفاريناس» (tacfarinas) وهو من قدماء المحاربين بالجيش الـرّومـاني - ومن أهمّ القبـائـل الثائرة: قبيلة «جدالة» و«المزالمة» المستقـرّة بالجزائر وتونس على ضفاف وادي «ملاق» وجنوب وادي «مجردة» وقبائل «المسولماس» (Musulmes) و«الجيتول» (Getules) وأمام هذا الخطر أمعن الـرّومـان «في اتخاذ تدابير حربيّة جديدة: جعل «أغسطس» في «حيدرة» (Ammaedara) معسكـر الفيلق الثالث الروماني (III° Legion Augusta) وفتح طرقـات اسـتراتيجيّة في منطقة بين «حيدرة» و«قفصة» (Gapsa) و«تكـاب» (Tacape) (قابـس) وشنّ حملات حربيّة عنيفة ضدّ القبائل المتمرّدة أو التي تهدّد بالتّمرّد» (4).

ولاقى الـرّومان في تطبيق هذه التدابير صعوبات جمّة من جرّاء المقاومة النشيطة التي كان ينـظمهـا القـائـد الـبربـري «تكفاريناس» الذي طالب الإمبراطور الرّوماني أن يسلّمه الأراضي الإفريقية» مهدّدا إيّاه في حالة رفضه

بشنّ حرب «لا هــوادة فيها». يقول شارل أندريه جوليان «إنّ تاسيت Tacite اعتبر هذا الإنذار جرأة نادرة غير أنّه إن دلّ على شيء فهو يدلّ على حاجة النوميديين الحيويّة إلى التزوّد من السهول الخصبة التي كان الإحتلال الرّوماني حائلا دونها» (5) ولم يتمكّن الرّومان من القضاء على هذه الثورة التي أخذت أبعادا خطيرة إلاّ مع البروقنصل «دولابلا» (Dolabella) في سنــة 24 ق.م.

وبعد أن تمكّن الرّومان من وضع يدهم على المغرب وألحقوه بالإمبراطورية كولاية من ولاياتهم. أخذت سياستهم وجها استيطانيّا فتوغّلوا في الأراضي الإفريقية وعملوا على القضاء على كلّ المعارضات البربريّة التي تظهر من حين لآخر. أقامت رومـا لهذا الغرض شبكة من الحصون والمسالك والطرقات والثكنات والقواعد العسكريّة تحاصر كلّ المناطق الإستراتيجيّة البربريّة تحمي الممتلكـــات الـــرّومـــانيّة وأهمّ هذه التحصينـات هي الخـطوط الـرّئيسيّة (Decaminus maximus et Curdo maximus) ؛ يمتـدّ خطّ على العـرض من الشمال الغربي بين «سكيكدة» و«عنـابة» إلى الجنوب الغربي قرب «قابس»، وخطّ على الـطول من الوطن القبلي مكوّنا من الخط الأول زاوية قائمة في حيدرة. وبذلك نمت حركة الاستيطان «فتحوّل قسم كبير من أراضي البلاد التونسية الحاليّة (أفريـكا القديمة Africa Vetus) إلى مزارع شاسعة يملكها الإمبراطور أو عظماء روما على حدّ قول بلين (Pline) كان ستّة ملاّكين كبار (Latifundiaire) يقتسمون فيما بينهم كامل الأراضي الإفريقيّة وذلك قبل عملية المصـادرة الـواسعة التي قام بها نيرون (Néron) » (6) فإنّنا إذا تتبعنا حركة (Limes) نلاحظ أنّه يحصّن إفريقيّة «الصالحة» من إفريقيّة الفقيرة فهو إذن نهائي أو وقتي بحسب تحقيق الهـدف المنشـود أو عدم تحقيقـه، حتى بلغ الإحتـلال الـرّوماني منتهاه. وفي أواسط القرن الثالث حين تحول المغرب بحدوده الحاليّة تقريبا الى مستعمرة رومانيّة محصّنة تحصينا كليّا ومطوّقة كما يجب، حتّى أنّ المناطق الداخلية الإستراتيجية البربريّة كانت مطوّقة بحصون ومراكز قويّة كما هو الشأن لجبال الأوراس. ومن هنا يمكننا القول أنّ الرّومان حاولوا وسَعَوا إلى التدخل في كلّ المناطق وخاصّة موريطانيا القيصريّة

التي كانت منطلق ثورات عديدة لكن كثرة الجبال وتحصن القبائل البربرية بها كانت تحول دون هذا المطمح على عكس افريقية حيث تمكنوا من التمركز فيهـا ومن بنـاء قواعـد متقدمة كـ (cydamus) غدامس ولم يقف البربر من سياسة الاستيطان هذه موقف الصاغرين الذاعنين لما لحقهم بل أشعلوا نار الثورة في عهد أغلب الأباطرة محاولين استرجاع ما افتك منهم بالقوة : مدنهم

وقراهم وأراضيهم وماشيتهم، يريدون العودة الى الأراضي التي هجرهم منها الرومان إلى تخوم الصحراء.

8) البـــربر يثورون علـى رومـا

ويلاحظ الناظوري «أنّ هؤلاء البربر الثائرين لم يقتصروا على البربر الذين استـوطنـوا الأودية والمـدن والقـرى ودخلوا المدنية بعد اتصالهم بالفينيقيين والقرطاجيين بل أيضا بربر المناطق الجبليّة والصحراوية وكانوا لا يزالون على نزعتهم البدوية وشكيمتهم القويّة فكانت مقاومتهم للرومان شديدة» (7).

لقـد انـدلعت هذه الثورات في عهد اسرة (Les Flaviens) وكان مركزها موريطانيا وسواحل سيرتا الكبرى حيث قتل «النازمون» جباة الضرائب سنة 85 ـ 86 وظهـــرت ثورة ثانية في عهـــد «هـادريـان» (Hadrien) (117 ـ 138 م). في موريطانيا أبلغت الأوراس في عهد انطوان لوبيو (Le pieux) وفي عهد سيبتيمـوس سـ واريوس 193 ـ 211 ورسواريوس الاسكندر.

واندلعت ثـورات عديدة من 222 الى 235 وأخـرى في 253 م شملت نوميديا وموريطـانيا القيصرية وكانت أهمّ القبائل الثائرة هي قبائل البافار (Les Bavares) التي تمتد مواقع نجعها من أعلى نهر الملوية الى الجنوب الشرقي من استطيف، وقبائل الحلف الخماسي التي تحتل بلاد القبائل الكبرى أو جزء منهـا وتمكنت من دخـول نوميديا. ولم ترجح الكفة الى جانب الرومان في موريطانيا القيصرية الا بعد أن قضوا على هذه الثورة سنة 259 م. لكن وبـالرغـم من الهزيمة بإن البربر البافاريين عادوا من جديد الى الثورة سنة 289 م مما أجبر الامبراطـور ديوقليميانوس على الحلول بأرض المغرب لفرض السلم الرومانيّة (Paix Romania) وإدخال اصلاحات ادارية حيث فصل بين الخـطة العسكرية والخطة الإدارية وقسم المقاطعات تقسيما جديدا فأصبح عددها ثمانية:

1) البروقنصلية: قسمت الى ثلاث ولايات:

- ولاية طرابلس
- ولاية المزاق (وسط وجنوب البلاد التونسية وعاصمتها سوسة)
- ولاية البروقنصلية الزوجتان (Zeugitan) وتضم شمال البلاد التونسية الى شمال شرقي البلاد الجزائرية وعاصمتهـا قرطاج.

2) نـــوميديا قسمت الى ولايتين :

ـ ولاية نوميديـا الشمالية وعاصمتها سيرته
ـ ولاية نوميديـا الجنـوبية وعـاصمتها لمياز وهي ولاية عسكرية ضمت الولايتان من جديد في عهد كنستنتان سنة 313 م وأصبحت سيرتا تسمـى قسنطينـة.

3) مـــوريطانيا : اقتـطع ديومليسيانوس الجهة الشرقية من موريطـانيا القيصرية واحدث ولاية جديدة سمّاها موريطـانيا السطيفية وقاعدتها سطيف.

أمّا موريطانيا الطنجية فضمت اداريا الى دائرة اسبانيا.

وفي إطار هذا التنظيم الجديد عهد «بالدفاع عن التخوم الجنوبية الى جند معمرين يخضع حقهم في الملكية الى واجب الخدمة العسكرية الـ (Limitarei) مقابل اعفائهم من دفع الضرائب» ووضعت ايضا جيوش على طول الليماس ـ الذي تقلص خاصة في موريطانيا ـ وفي نقاط عديدة داخل المقاطعات وهي وحـدات متحـركة، كما حاولوا الاعتماد على القبائل البربرية التي «لم تكن خاضعة لرومـا ولكنّ حشر جنودها شيئا فشيئا في جيوش الامبراطورية مقابل جراية ويخضعون لنفس القواد الذين يخضع لهم جند الحدود ـ Les limitarei .

كنّا تعرضنا في الفقرات السابقة على الجانب العسكري لعملية الاحتلال ومراميه الاقتصادية وسنحاول مراقبة تأثير هذا التدخل الاجنبي على التركيبة الاجتماعية البربرية وعلى بنياها الفوقى.

9) أثر الإحتـلال على التركيبة الاجتماعية البربرية

ان دارس الآثـار يلمس للوهلة الاولى عدد المـدن الـرومانية الساحلية والداخلية في كافة انحاء المغرب ويلاحظ انّها اقيمت في غالب الأحيان على نفس المـواقـع التي اختـارهـا من قبلهم القـرطاجيون لانشاء مدنهم «وقد تضمنت المدن الرومانية في تخطيطها كافة العناصر الرئيسية الحكومية والخاصة فقـد شيدت المبـاني الحكومية والمكتبات والمعابد واقواس النصر والحمامات والحوانيت والأسواق والمنازل ومعاصر الزيوت والمطاحن والساحات والمسارح نصف الدائربة والملاعب الدائرية والاسطبلات وغيرها من متطلبات الحياة العامة في المدن» (8).

بعث الـرومـان هذه المدن الحاملة لحضارتهم وجعلوا منها مركز اشعاع لثقافتهم وقيمهم ولغتهم وعملوا بواسطتها على اجتذاب البربر وادماجهم في الاطار الروماني. فاهتم الرومان بفرض اللغة اللاتينية في البيئة المغربية ولكن لم يتحقق لهم ذلـك بصفـة أساسية حيث أنّ اغلبية البربر لبثوا متمسكين بلهجـاتهم التي يذكـر الناظورى بأنها «تأثرت باللغة البونية «Punique» كما حاول الـرومـان فرض عبـادة الامـبراطور لكن البربر بقوا يؤمنون بآلهتهم البربرية مثل الآلهـة «تانيت» وأخرى أخذوها عن قرطاج كالالاه «بعل حمون» إلا أن البربر أقبلوا على اعتناق المسيحية لأنّ السلطة الرومانية بقيت ولمدة طويلة تعـارض انتشـار الكنيسـة، لكن حركـة «الردة» كانت قوية عندما اصبحت المسيحية «ديـن دولـة».

ان الاحتـلال العسكـري واتسـاع حركـة الاستيـطان وتهجير القبائل الـبربـرية عن أراضيها وانتشار الحضارة الرومانية، كانت عوامل رفعت بالأثـريـاء وقـدماء المحاربين في الجيش الروماني من الذين آثـروا التنكّر لقبـائلهم وتـراثهم كي ينـدمجوا مع الطبقة الارستقراطية الرومانية وظلوا يرتقون الى مرتبة «المواطن الروماني» بصورة فردية أو في نطاق أسر كاملة «كـآنتستيون (Antistu) مثلا وهي اسرة من بلدة آتبيليس (Thibilis) الصغيرة الواقعة شرقي الجزائر اسند لرئيسها ادفنتـوس (Adventus) وهو رجـل جيش تولى قيادة الجيوش المرابطة على حدود إيطاليـا الشمالية في جبال الآلب بين سنـة 170 و174 م ثمّ عين واليا في بلاد الجـرمـان السلفى وفي مقاطعة بريطانيا الفـرنسية وتزوج أحد أبنائه أو أحد اخوته الامبراطور مارك اورال (Marc Aurèle) سنـة 178 وارتقى آل نتيسى حولى سنـة 180 الى مصاف النخبة الضيقة المتركبة من كبريات العائلات الشريفة في رومـا» (9).

مكنت سياسـة منح الألقـاب أمـراء البربر وملاكي الارض الكبارمن الاندماج في سلك الادارة الرومانية لذلك نجد العديد من اعيان البربر في مناصب هامة حيث وصل احد سكان الكاف (Sicca Veneria) مثلا الى تقلّد منصب وزارة المال وآخر تقلد منصب قنصل. كما وصل بعض الافارقة الى مرتبـة الابـاطـرة كـ سبتيم سيفـار (Septim Sever) ـ 191 ـ 211 م كان الامبراطور اسرة السبتيميين (Septimii) وهي من اثرى عائلات ليبسيس ماقنة (Lepcis Magna) (شرق طرابلس). يذكر الاستاذ محمد الهادي الشريف «أن الافارقة كانوا يشكلون آنذاك في روما حزبا قويا بدأ يعوض الحزب الاسباني الـذي كان له التفـوق حتى ذلـك العهـد كما قدرت نسبة الارستقراطيين

الرومان المنحدرين من اصل افريقي في ذلك العهد بـ 15٪ من جملة تلك المجموعة» (10).

كانت هذه الطبقة التي اندمجت مع الارستقراطية الرومانية من أكبر المستفيدين من التقدم الاقتصادي الذي وصلته افريقية وعامة بلاد المغرب حيث تمكنت من استثمار الأرياف والحرف والتجارة لصالحها وجمعت ثروات طائلة تشهد عليها الاموال التي رشى بها جوغرطة عددا من الاعيان الرومان لكسب مساندتهم في نزاعه من أجل حكم نوميديا.

وبذلك مكنت هذه الطبقة روما من استثمار المغرب ونهب خيراته، في حين وقفت الطبقة المقهورة من سكان المدن والأرياف من العبيد والفلاحين والحرفيين الصغار في وجه روما فقامت بثورات عديدة. لقد كانت تشكل «خمسة اسداس السكان، وبقيت خارجة الى حد معيّن عن التأثيرات الرومانية متحصنة بالعصبية القبلية وبالجبال والصحاري مدافعة عن ذاتيتها وعن ارضها وحتى المجندون والعبيد والفلاحون الصغار الملحقون بالاسياد كانوا سرعان ما يلتحقون بقبائلهم كلّما ثارت.

إنّ عمليات التهجير والمحاصرة والاستيطان زادت في تقسيم المجتمع البربري الى طبقتين متمايزتين وضوحا واحدة ترَومنت لأنّ مصالحها ترومنت بعد إن كانت قرطاجية. والثانية استُعبد منها من استعبد وسخّر من سخّر واقتلعت قبائل عديدة من أراضيها ونجوعها ورمي بها في تخوم الصحراء فبقيت شاهرة الثورة في وجه الغزاة ولم تتوانى عن شن هجومات مركزة كلما كانت الفرصة سانحة كما بقيت محافظة على لهجاتها وثقافتها وروابطها القديمة.

لكن وبالرغم من هذا التمايز الطبقي فإن المجتمع البربري ظل وثيق الارتباط بالقبلية وظلت العصبية القبيلة هي التي تجمّع بين السيد والعبد فهناك قرى ومدن كان يحكمها ويدير شؤونها رؤساء القبائل التي استقرت ويخضعون للنظام الروماني لكنهم يقودونها في الثورة على الرومان كلما شعروا بضعفهم فيسارعون في التحالف مع كل غاز خوفا على مصالحهم وعلى رغد عيشهم. لقد تخلت 17 مدينة عن قرطاج لما نزل الرومان على شواطىء افريقية كغزاة فنالت «شرف المدن الصديقة للشعب الروماني». أما الطبقة المقهورة والقبائل الشّردة فانها كانت تساند في بعض الاحيان الغزاة لما ذاقته من استعباد من حكامها القدامى، إلاّ أنّها سرعان ما تتعرف على مرامي الاسياد الجدد فتثور في وجههم وتنظم المقاومة ضدهم.

10) صمدت ذاتيّة البربر رغم رومنة أرستقراطيتهم

لم تقدر رومة الارستقراطية وحدها على تفسيخ ذاتية الشعب البربري على الرغم من ضعف روابطه القومية التي غالبا ما كانت تعوّضها العصبية القبلية وحتى اللغة لم تكن موحدة بل كانت لهجات متقاربة لم تتحول بعد الى لغة مقننة باعتبار أنّ المجتمع البربري لم يمر بالمرحلة العليا للباربارية Barbarie كما سبق ان دللنا على ذلك ولم يعرف بالتالي اللغة المكتوبة الا مع قرطاج وروما الطبقة المحظوظة أمّا فقد اندمجت مع روما واخذت عنها اللغة والثقافة والآداب وأسلوب العيش والحكم ولم تعن بتراثها وتراث شعبها لذلك نرى روابطها القومية تضعف كل يوم أكثر أمام ألف عام مع الحضارة القرطاجية وما يقارب 550 سنة مع الروم.

لم تكن الخمسة عشر قرنا القرطاجية والرومانية عامل بناء الروابط القومية بل كانت عامل تفكيك واضعاف لها. لكن الامر اليقين هو ان ارتباط الطبقة الارستقراطية البربرية بقرطاج وروما اثر في تطور علاقات الانتاج السائدة وجعلها تتكيّف حسب التطور الحاصل في البلدان الغازية، ومع ذلك لم تتمكن من التحكم في المجتمع بأسره مادام جزء مهم غائبا عن هذه التأثيرات لأنّه منزوع من أرضه، فظلّ محافظا على عاداته وروابطه الاجتماعية ويتخلّى عنها كلّما اضطرته الظروف التي يمر بها (الاحتلال الروماني وقبله الفينقي). لقد حدثنا المؤرخون طويلا عن همجية البدو ومعاداتهم للحضر والحضارة واظهروهم في صورة الافجاج الغلاظ بدون ان يكشفوا لنا الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة.

كان النظام العبودي ممزقا بتناقضاته الجدّية الغير قابلة للحل والتي ادت في النهاية الى اندثاره. فنضال العبيد ضد الاستغلال الوحشي الذي يتعرضون اليه وغضب القبائل البربرية المشردة وتململ شعوب الشرق واسبانيا فتح الطريق في غالب الاحيان أمام ثورات عارمة عمقت تناقضات النظام العبودي الروماني وزادت ازمته حدة فبعد الانتصارات توالت اهزائم وبعد الغزوات تعاقبت الحروب الدفاعية فتقلص الانتاج وعلى الخصوص في القرنين الاخيرين للامبراطورية الرومانية وعمت الفوضى في التوزيع (او التجارة) وبدأ الجوع والفقر يسري حتى في المقاطعات الفنية بالامس وبدأت الحرف تنقرض والمدن تفقد سكانها. وتقسمت الضيعات الكبرى الى قطع صغيرة يفلحها العبد المحرر الذي اضطر سيده الى عتقه والذي اصبحت له

مصلحـة ما في الانتـاج، او الفلاح الصغير وكلاهما مرتبط بعقد صاحب الارض. وهؤلاء المزارعون الجدد مربوطون بالأرض لا يغادرونها حتى عند بيعها لسيد آخر «كانت فئة جديدة من المنتجين الصغار التي كانت في وضع بين الاحرار والعبيد وكان لها نوع من المصلحة في العمل لدى هؤلاء المعمرين (Colons) كما يسمونهم هم اسلاف اقنان القرون الوسطى» (11).

سارعت كل هذه التناقضات متجمعة في انهيار الامبراطورية الرومانية، وعمّقت أزمـة الايديولوجيا العبوديّة فتعالت الأصوات التي تشجب النظام العبودي وتنادى بالتساوي الطبيعي بين البشر حتى أن الاقتصاديون أصبحوا ينادون بضرورة التخلي عن الاعتماد على العبودية في الانتاج.

ان التنـاقضـات الـطبقية للامـبراطـورية الرومانية المتعفنة وفعل قانون التطابق بين البنية التحتية والبنية الفوقية ولدت المسيحية كإيديولوجية تعبّر عن احتجـاج العبيد والفـلاحـين والحـرفيين المفقـرين ضدّ الاستعبـاد والاستغـلال كما تعـبّر عن حيرة أوسـع شرائـح الـطبقة الأرستقراطيّة أمام الأوضاع المعقدة الجديدة. لذلك نرى ان المسيحية كلما شددت من الوعيد بالنسبـة للأثرياء تهدي المعدمين وتعدهم بحياة أفضل في الآخرة. لم تلق المسيحية في البـداية الا من قبـل الأباطرة لكنها اصبحت (بعد صراعات عديدة) الدين الرسمي للدولة.

لم تلبث هذه الازمة التي تعيشها الامبراطورية الرومانية ان انعكست على المغرب وبدأت الثورة تعم البلاد ضد السياسة الرومانية وضدّ الاسياد الذين جعلوا الـبربـر يضيقون بالاضطهاد والاستغلال العبودي. ورغم ما عرفته بعض المـدن من ازدهـار منقـطع النظير في القرن الرابع وبالرغم ممّا وجد الضيعـات الشاسعة من حياة ترف (تشهد عليها لوحات الفسيفساء) فإن التصـدع اخذ يسري في الولايات حيث بدأت القبائل تتجمع على حدود المقـاطعـة الجنـوبية في أحـلاف قوية أصبـح بامكـانها التصـدي للهيمنة الرومانية. ومع اشتداد الازمة اخذت المبادلات التجارية في الركود الى حدّ الفـوضى. ونتيجـة لذلـك اخـذت المـدن في التقهقـر مفسحـة لآزدهـار «القطاعات» العقارية الشاسعة وإثراء أصحابها.

في مثل هذا الوضع المتفجر وطئت أقدام الديانة المسيحية (وليدة المجتمع العبودي المتأزم) بلاد المغرب وكانت وقتئذ في المعارضة فانتشرت بسرعة فائقة وخاصة في عهد الاسقف «قبريانوس». كان عدد الاساقفة بالمقاطعة الشرقية من شمال افريقيا يفوق عدد الأساقفة ببلاد الغال بأكملها. كانت الكنيسة

الافريقية في القرن الرابع الميلادي تعدّ 600 أسقف مقابل 100 فقط في بلاد الغال. لقد وجد البربر في المسيحية عزاء وأملا وواجهة لمعارضة الامبراطورية الامر الذي عرّض الكنيسة ورجالها الى اضطهاد بعض الاباطرة وأثار فيها خلافات كبيرة بين الذين يبحثون على تسوية مع الامبراطورية وبين من يقتربون اكثر من المظلومين والمقهورين يؤولون المسيحية ليجعلوا منها «دينا شعبيا». تعاملت الكنيسة الرسمية في قرطاج مع السلط خاصة عند إعلان الامبراطور قسنطين «سلم الكنيسة» سنة 313 م وكونت منذ ذلك الحين مع الأعيان على اختلاف أصنافهم ونظام الحكم، حلفا قويا للدفاع عن النظام العام والاستقرار الاجتماعي. فانشق عنها المذهب الدوناتسي (Donatiste) نسبة الى دوناتس الاكبر أحد أساقفة قرطاج اللامعين فتبنّى حركة «الدوارين» وهم مجموعة الثوار من الفلاحين الصغار المفقرين وانظم اليهم سكان الارياف النوميديون وبعض العصابات من قطاع الطرق (مما مكن بعض غلاة المؤرخين من أن يصنفوا هذه الحركة على انها حركة قطاع طرق) هذا بالرغم من المعارضة التي أبداها الأساقفة المعتدلون الدوناسيون وخاصة ذوو المناصب العليا. ومع ذلك وجد هذا المذهب مساندة خاصة من قساوسة الارياف الدونانسيين فقامت ثورة بقيادة أمير بربري «فيرموس» الذي ضمّ اليه «الدوارين» وقاتل شرشال مما زاد في اضطهاد الدوناسسيين كمتآمرين مع «فيرموس» وصودرت ضيعاتهم وأملاكهم ولم يتم القضاء على هذه النزعة الا مع القديس اغسطينوس أصيل سوق أهراس النوميدية منبت النزعة الدوناتسية فوجد مساندة كبيرة من الملاكين العقاريين الكبار النوميديين.

وهكذا تزعزعت اركان الامبراطورية بفعل تناقضها وبدأ صرح روما العظيم ينهار فانقسمت السلطة بين عدّة اباطرة واحتدت الصراعات السياسية بينهم وبدأ النظام العبودي في التحلّل ولاح الوهن على السلطة المركزية واستغل البربر الذين لم ييأسوا من استرداد أراضيهم، هذا الوضع الجديد الذي زادته الصراعات الدينية تعقيدا فهجمت القبائل البربرية لاسترجاع أراضيها «ونهب» الدوارون المدن والمزارع والقرى وانتفض العبيد والفلاحون المسخرون على اسيادهم.

11) الوندال «يحرّرون» البربر من نيرروما ليستعبدوهم

لم يكن البربر وحدهم متربصين بأعدائهم وعلى الأخصّ مع ضعف السلطة المركزية بل أيضا شعوب الوندال التي مازالت في مرحلة التحوّل من

المرحلة العليا للباربارية الى الحضارة. كانت هذه الشعوب تتسم بحركية دائمة لم يعد يعرفها الجسم المتداعي للامبراطورية الرومانية لقد انطلقت في البداية من بحر البلطيق وانضمت إليها قبائل الآلان والسواق فاحتلت اسبانيا، لكن جيوش قسطنطين بقيت تحاصرها فرحلت الى جنوب اسبانيا واستقرّت بها سنة 425 م. كان جنسريق ملك الهستنخ والآلان من اشهر قادة الجرمان على دراية بالوضع في المغرب وبالنزاعات السياسية بين الرومان كتمرد القائد بونيفاس على الامبراطورية (ويُروى بأنّه طلب النجدة من الوندال) فدخل المغرب ومعه 80.000 رجل عن طريق مضيق جبل طارق سنة 429 م متجها نحو الشرق أي قاصدا نوميديا والبروقنصلية ولم يجد معارضة من الأهالي. لقد كانت القبائل البربرية والفلاحون الفقراء والدوناتسيون منصرفين الى التنكيل باعدائهم ويذكر شارل اندري جوليان ان التخريب والتدمير والقتل الذي يحسب على هجومات الوندال ليسوا هم الوحيدين المسؤولين عنه.

أمّا الجيوش الرومانية بقيادة بونيفاس الذي تصالح مع روما واسترجع منصبه كقائد للجيوش فقد انهزمت أمام جنسريق وتحصنت بمدينة عنابة وقسنطينة وقرطاج التي بقيت بحوزة الرومان. بينما انتشر الوندال في بقية المناطق. إنّ رحيل بونيفاس الى روما واستيلاء ايتوس على قيادة الجيوش في غوليا جعل المغرب دون حكم عسكري روماني مباشر، اضافة الى ذلك وقع توقيع الاتفاقية بين الرومان والوندال في 11 فيفري 435 م والتي بموجبها تحصل الوندال على حق الاستيطان في المقاطعات الثلاث الموريطانية وجزء من نوميديا لكن سرعان ما عمل جنسريق على التوسع فاحتل قرطاج سنة 439 م دون مقاومة تذكر واطلق بعد ذلك العنان لقراصنته لاصطياد السفن الرومانية.

أورد شارل اندري جوليان في كتابه «تاريخ شمال إفريقيا» «ان ملك الوندال اختار من بين سكان افريقية اكثرهم غنى واعظمهم شأنا فانتزع املاكهم واثاثهم وسخر الرقاب بعد ان كبلها بسلاسل العبودية ثم جرّد الافارقة من أخصب أراضيهم وأوسعها فوزعها على الوندال... وأبقى لأهل البلاد جميع الاراضي التي اعتبرها ضعيفة الانتاج ولكنه اثقل كاهلهم بالاداءات فكانت تبلغ محصولها» انتزع الوندال الاراضي الصالحة وخاصة في منطقة زغوان واستخدموا أصحابها كعبيد وفي الغالب كمعمرين يدفعون لهم ضرائب مرتفعة امام الاملاك الرومانية القديمة فقد اصبحت كلها على ملك الوندال يتصرفون فيها عن طريق نواب.

تمكن الوندال من فرض سيطرتهم على كامل المغرب خاصة بعد أن دخلوا روما واستباحوها ونهبوها طيلة خمسة عشر يوما. استقر الوندال بقرطاج وجعلوا منها عاصمة لأوّل مملكة من ممالیك البربار وقضوا على النظام الاجتماعي الروماني واضطهدوا المسيحيين باسم الاريوسية (Arianisme) لكن سرعان ما اندمجوا في الحضارة المتقدّمة وذاب كيانهم المستقل وسط المجتمع البربري وفقدوا عصبيتهم واندثر سلطانهم عندما حل بالبلاد 16 ألف جندي بعث بهم من القسطنطينية الامبراطور جوستنيان سنة 533 م.

لقد حطم احتلال الوندال للمغرب علاقات الانتاج الاقطاعية الناشئة التي بدأت تظهر مع انهيار النظام العبودي وهذه العملية تركت المجال مفتوحا امام القبائل البربرية لتستعيد أرضها ونجوعها لا فقط القبائل التي لم تقدر روما على اخضاعها أو على إدماجها «لا في أقصى المغرب ووسطها فحسب بل حتى داخل حدود البلاد التونسية الحالية : في سنة 510 م اتخذ الفركسناس (Les Fraxenes) منطقة تالة والقصرين مقرا لامارتهم واستقر غيرهم في منطقة قفصة وفي جبال الجنوب التونسي وشنت تلك القبائل حملة عنيفة على المدن وزعزت طرق عيشها واركان ثقافتها (اللاتينية والمسيحية الكاتوليكية) حتى ان الحضارة الرومانية الافريقية جنوب السلسلة الظهرية التونسية أو ما بقي منها هناك أصبح منحصرا في بعض المدن الساحلية أو في بعض المراكز» الداخلية (12) وبهذه الصورة تمت العودة الى نمط علاقات الانتاج القديمة، لكنمع فتح الطريق أمام انتشار أوسع لنمط الإنتاج الناشىء.

12) الرومان يعودون . . . من بيزنطة

تمكن القائد البيزنطي بليزار Belisaire سنة 533 م من القضاء على الجيوش الوندالية ودخول بلاد المغرب لاعادة تنظيمها على المنوال الروماني وأولى عناية خاصة لمقاطعة البروقنصلية حيث يعود بالنظر للقائد المكلف بشؤونها تعيين ولاة المقاطعات الاخرى (الزوجيتان وطرابلس ونوميديا وموريطانيا السطفية وموريطانيا القيصرية وسردانيا) وعمل البيزنطيون كما فعل أسلافهم الرومان على تدعيم التنظيم الاداري بواسطة أداتهم العسكرية فبنوا الحصون والقلاع وأحيوا اللیماس واتبعوا فيه نفس الخطوط القديمة وحصنت المدن من جديد كسطيف وتبسة وحيدرة وتيبيكا (عين تونقة). كل هذه التحصينات كانت تهدف الى تطويق البربر ومحاصرتهم

ومراقبتهم، كما فعل الرومان من قبلهم، بالرغم من انهم اقتبلوهم في البداية بشيء من المبالاة، على عكس الطبقة الارستقرطية من الرومان المسيحيين ومن البربر الذين افتكت اراضيهم، لكن الضرائب الثقيلة التي نزلت على عموم القبائل البربرية كانت بمثابة المنّبه الذي جعلها تنهض من غفوتها وهي التي لم تذعن لأيّ كان من الغزاة والمحتلين وبدأت تظهر التوترات الاولى وكان مسرحها نوميديا وأصحابها مزارعون برابرة (من القبائل المستقرة) ثم ثارت قبائل المزاق الرحل الصحراوية التي دحرها اللياس نحو الجنوب والتي لم يتمكن البيزنطيون من وضع حد لهجوماتها إلاّ في سنة 535 م وعلى يد سليمان الذي اتجه فيما بعد للوجهة النوميدية لكن في الاثناء ثار عليه الجند الذين لم يحصلوا على جرايتهم. وبعد أن اخمد هذه «الفتنة» توجه الى الاوراس للقضاء على المقاومة البربرية فتمكن من اقتحام تحصيناتهم حتى تلك الموجودة فوق قمة جبل الاوراس كتومار ودعّم انتصاره بتركيز حصون جديدة في قلب الجبل.

لكن سليمان لم ينعم بهذا الانتصار طويلا فثار عليه جنده من جديد لعدم تسديد جراياتهم وتمتعه لوحده بالغنائم الكبيرة و«تنكّر» له القسم البربري الذي تحالف معه في هذه الحرب لعدم وفائه بوعوده فقتل وفقد بذلك البيزنطيون قائدا عسكريا كان بإمكانه أن يضع يده على المغرب بأكمله. ويظهر ذلك خاصّة لما عمّت الفوضى بسرعة فائقة وعزل الحكم البيزنطي بالمغرب وبقي يترقب ضربة من قوّة أشدّ واكثر جرأة ورغم طول الاحتلال البيزنطي النسبي فإنّه لم يأت بجديد للبربر لأنّه اجترّ الحضارة الرومانية المنهارة وحاول احياء قوة ماتت ولم تعد تمثل مطمحا بالنسبة للارستقراطية «ولا رادعا بالنسبة للشعب البربري فضلا عن أن الاحتلال البيزنطي لم يمس سوى جزء من افريقيا اي شمال البلاد التونسية ومقاطعة قسنطينة والسهول الساحلية وبعض المراكز الاستراتيجية العامة في الداخل. اما بقية المناطق فقد استعادت فيها القبائل البربرية سيادتها». وعاش النظام البيزنطي نفس أزمة الامبراطورية الرومانية، ولكن هذه المرّة باكثر حدّة مما جعل نفوذه يتقلص حتى وصل الامر بأحد قادتها في افريقية الى اعلان استقلاله عن الامبراطورية وتمّت مبايعته امبراطورا لافريقية حدث هذا في حين كانت الجيوش العربية تستعد على تخومها الشرقية للغزو.

الغــزو العربي لشمـــال إفريقيـا واستعـراب تــونس

1 ـ أزمـــة التحوّل الاجتمـاعي في الجزيرة العربية

كان سكّان الجزيرة العربية في الجاهلية وفي صدر الإسلام منقسمين الى :
ـ قبائل بدويّة وهي الأغلبيّة تستوطن السهول والبقاع الشبيهة بالصحاري والبوادي وتعتمد في حياتها على تربية الانعام ولا سيّما الإبل.

ـ قبائل حضريّة تسكن المدن والقرى والواحات وتعتمد الزراعة كمصدر أسـاسي في معيشتها وكانت زراعتها تقوم على الحبوب والنّخيل والكروم.

وكان اليمن هو الإقليم الذي تقدمت فيه الزراعة اكثر من أي إقليم اخر.

واشتغل الحضر بالتجارة وتكوّنت مدن في شكل محطات للقوافل التجارية (أهّمهـا) مـكّـة وتـولّت القبائل البدويّة حمايتها عبر الصحراء بالإضافة الى حراسها الخاصين.

لقد بقيت قاعدة التنظيم الاجتماعي الاساسية في الجزيرة حتّى بعد القرن السادس ميلادي هي القبيلة التي يعيش افرادها في نطاق الترابط الجماعي المبني على أسـاس النسب والصلة الـدمـوية ويكـون فيها الوجهاء الطبقة الارستقراطية التي تتمتع بحظوة داخل القبيلة لا يعرفها غيرها من «العامة».

وإقترن مجيىء الإسلام بأزمة تحوّل المجتمع العربي من نظام اجتماعي عبودي متشابك مع نظام المشاعة البدائيّة إلى نظام إجتماعي إقطاعي بقيت صلته وطيدة بالنمـطين السـابقـين. وهـذا التشابك بين أنماط إنتاج وتشكيلات اجتماعية متعددة مردّه العصبية القبلية البدائية التي تجمع بين أفراد القبيلة الـواحـدة. وقـد شهـدت هذه العصبية فتورا ثم تفككا عندما اتسع نفوذ الارستقراطية العربية وتكدست بين أيديها ثروة طائلة على حساب الطبقات السفلى في «السلّم» الاجتماعي (وخاصة مع الأمويّن والعبّاسيّين).

2 ـ انطــلاق «الفتــح» العربي

دخـل العـرب في علاقـات جديدة مع مجتمعات متطورة عندما اعلنوا «الجهاد في سبيل الله» وبدأو «فتـوحاتهـم» باحتلال الشام والعراق في عهد الخلفاء الراشدين ثم توجّهوا الى مصر ومنها الى إفريقيّة لما تتمتعان به من ثروات زراعية هذا بالإضافة الى يقينهم أنّ صدامهم مع الفرس وكذلك مع البيزنطيين سوف يكون شديدا وأنّه لا بدّ من إعداد العدة له لتحقيق النصر. وهكذا توجّه «عمرو بن العاص» الى مصر فأخضعها سنة 640 م ثمّ «برقة» و«طرابسل» اللتان انفصلتا عن إفريقيّة منذ عهد الإمبراطور البيزنطي «مـوريس».

ولم يجد العرب مقاومة جدّية من البيزنطيين ولا من القبائل المرابطة هنالك وخاصّة قبائل «لـواتة» التي كانت ناقمة على البيزنطيّين من جرّاء سياستهم الجبـائيّة المجحفـة، لذلـك صالحت عمر بن العاص مقابل جزية تدفعها سنويّا. ثمّ أمر عمر بن العاص عقبة بن نافع باحتلال الواحات الداخلية بفزّان بينما احتلّ هو أهمّ مدن طرابلس (سرته، لبدة، طرابلس) حتى يقطع امكـانية نجدة قبيلة «نفوسة» البربرية التي يذكرها «ابن عذاري» على أنها قبيلة «بتريّة» من قبائل البربر. فاحتلّ عقبة مدينتها «صيراتـا» ثم «ودان» سنة 644 م دون أن يتدخل «جريجوريس».

وأصبحت عند ذلك أبواب إفريقيّة مفتوحة أمام العرب. يقول عمرو بن العاص في خطاب بعث به الى الخليفة عمر بن الخطاب: «إنّ الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقيّة إلاّ تسعة أيّام، فإنّ رأي أمير المؤمنين أن يغـزوهـا ويفتحهـا الله على يديه فعل» فكان ردّ الخليفة كما أورده ابن الحكم، أن نهاه بشدّة على ذلك: «إنّها ليست إفريقيّة ولكنّها المفرقة غادرة، مغـور بها لا يغزوها أحد ما بقيت...» مضيفا: «لا أوجّه إليها أحد ما مقلت عيني الماء» وبالفلع فلم يتم التفكير فيها إلاّ في عهد عثمان بن عفّان ولم يتمكّن العرب من وضع يدهم على المغرب إلاّ بعد ستّين سنة بينما احتلّوا مصر وطرابلس والشامّ والعراق وفارس في أقلّ من عشر سنـوات.

لقد كان للعوامل الطبيعية قسط في جعل عملية الاحتلال صعبة والعامل الذي لعب دورا حيويّا في ذلك هو تعوّد البربر على حرب المقاومة وإتقانهم التحصّن بالطبيعة التي عرفوا كيفية استخدامها في وجه «الروم» و«الـوندال» و«البيزنطيين» وفي هذه المرة في وجه العرب.

عر المجتمع البربري منذ العهد القرطاجي تطوّرا كبيرا بفعل تأثيرات الحضارات الاخرى ولكنّه مع ذلك بقي محافظا، محتميا بـ «حصون» القبيلة، وهذه «الحصون» هي عامل حماية وعامل إضعاف للذات البربرية إذ أنّ البربري رغم مقاومته العنيفة للغزاة بقي ضعيف التعلق بذاتيته القومية التي حلّ محلّها تعلّقه بالقبليّة.

3) أهمّ التجمّعات السكانية التي كانت تعيش في المغرب قبيل الغزو العربي

ينقسم سكان بلاد المغرب الى قسمين كبيرين :

1 ـ **الأفارقة** : وهم مجموع الرّومان والبيزطيّين والوندال والقرطاجيّين والبربر الذين اندمجوا في إحدى الحضارات الواردة عليهم.

2 ـ **البربر** وهم السّكان الأصليّون لبلاد المغرب وينقسمون إلى :
أ ـ البربر الرحّل : الذين يعيشون أساسا من الرّعي ونجدهم بالجبال والصّحاري.
ب ـ البربر المستقرّين : وهم سكّان المدن والقرى ويتعاطون الزّراعة على وجه الخصوص وقد كنّا رأينا فيما سبق التأثيرات التي أدخلها القرطاجيّون والروسان والوندال والبيزنطيون على المجتمع البربري أهّمها تقسيمه الى طبقتين متمايزتي المصالح : طبقة الأسياد المكوّنة من أعيان القبائل والعائلات الثريّة وهي غالبا ما كانت تحاكي الغزاة. وتندمج معهم لتكوّن حلفا قويّا ضدّ الطّبقة المستغلّة لحماية مصالحها الضيّقة.
ـ طبقة العبيد والفلاحين الصغار والمعدمين والقبائل التي انتزعت منها أراضيها وألقي بها الى تخوم الصحراء وهذه الطبقة هي التي كانت تشكل قوة الرفض الكبرى وكانت مصدر الثورات في وجه الغزاة.

لقد شهد هذا التقسيم الطبقي نوعا من التغيير ـ أو هي مرحلة تحوّل الى تقسيم جديد ـ وكنّا أوضحنا كيف أنّ أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية تعدّ بمثابة مرحلة التحوّل من المجتمع العبودي إلى المجتمع الإقطاعي وبد هذا التحول يصل بلاد المغرب وخاصّة إفريقيّة ونوميديا الشرقية حيث أصبحت أرستقراطية الأرض تحتلّ مكان الصدارة وبدأت المدن تفقد هيمنتها على الرّيف لصالحه، ومن ثمّ لملاّكي الأرض المكانة البارزة في المجتمع. وبدأ العمل بنظام المزارعين (Les Colons) كما يقول عنهم أنجلس : أسلاف الأقنان (Les prédecesseurs des serfs) إلاّ أنّنا نلاحظ

أيضا عند إنهيار الإمبراطورية الرومانية ودخول الوندال المغرب، تمكّن القبائل المهجّرة والمحاصرة من استرجاع مكانتها وأراضيها وهي في الغالب كانت تحافظ على علاقات إنتاج متشابكة، بدائيّة وعبوديّة على وجه الخصوص ولا توجد نواة المجتمع الإقطاعي الاّ لدى القبائل المستقرّة.

هذه التشكيلة الإجتماعيّة التي وجدها العرب عندما حلّوا بشمال إفريقيا وهو تنظيم يشبه الى حدّ كبير التنظيم الإجتماعي لجزيرة العرب التي كان سكّانهاينقسمون إلى «قحطانيّين» و«كنعانيّين».

قسّم ابن خلدون البربر إلى «برانس» و«بتر» ينتسب الجزء الأوّل إلى «برنس بن برقسموا» وهم حسب اعتقاد المؤرخين من الحضر. أمّا القسم الثاني فإنهم ينتسبون إلى «مادغيس بن بر» الملقّب بـ «الأبتر» وهم حسب اعتقاد المؤرخين من البدو الرحّل.

«ومن أهمّ قبائل البرانس ـ ما يذكر ابن خلدون ـ : أوربة، وصنهاجة، كتامة، مصمودة، أريغة وازداحة إضافة الى لمطة، هسكورة، وجزولة، وقبيلة صنهاجة هي أهمّ هذه القبائل وأكثرها فروعا في انحاء المغرب خاصّة بجبال «الأطلس» و«الريف»، ولا تقل عنها أهّمية قبيلتا : ـ كتامة، ومصمودة ـ وهما من القبائل الأكثر استقرارا بسهول دكالة جنوب وادي ـ أمّ الرّبيع ـ «وجميع المصامدة متحضرون وقد ألفوا حياة الإستقرار في المدن» (13).

بينما أهمّ قبائل البتريّة هي ضريسة، وفنوسة، وادالسة، ولواتة، ويعتبرابن قبيلة ـ زناتة ـ فرعا من ـ البتر ـ ومنها تتفرّع قبائل ـ جرواة ـ و ـ مغزاوة ـ وبنو زيّان ـ و ـ بنو مرين. «ولكلّ قبيلة بطون وأفخاذ عديدة وتوجد خاصّة بالجنوب من غدامس إلى السوس الأقصى ـ وينتسب إليها سكّان القرى الصحراويّة» (14). كما نجد بعض القبائل ـ البربرية بجبال ـ الأوراس ـ كزناتة ـ وقبيلة ـ نفوسة ـ بجبل نفوسة جنوب طرابلس.

إنّ أحد تناقضات المجتمع البربري التي كنّا تحدّثنا عنها هو التناقض بين المدينة والريف وهو ما نجده في العداء الدّائم بين البدو والحضر وخاصّة بين قبيلتين هامتين هما قبيلة ـ صنهاجة ـ الحضرية وقبيلة ـ زناتة ـ البدويّة.

وقد استغلّ الرومان هذا التناقض لإضعاف البربر، وتحالفوا مع الحضر ضدّ البدو ودحروهم نحو الصحراء مما أضعف عوامل الوحدة السياسية وتقوية الروابط القومية بين البربر فنرى مثلا أن قبيلة ـ زناتة ـ البربريّة تتحالف مع الجيوش العربيّة بينما تحالف البرانس مع البيزنطيّين لمقاومة العرب.

4) غنـائم الغزو تشجع العرب على العودة الى إفريقيّة

ولّى عثمان، عبد الله بن سعيد بن أبي سرح على مصر سنة 645 م عوضا عن عمـرو بن العـاص وهـو الـذي سيتولى القيام بالحملات الاولى نحو إفريقيّة، وكان أوّل صدام له مع ـ جورجيوس ـ في سبيطلة التي اتخذ منها قاعدته متحالفا مع بعض القبائل البربريّة : وانهزم ـ جورجيوس ـ أو (جرجير كما يسمّيه المؤرخون العرب) وقتل في هذه المعركة.

كان عبد الله بن الزّبير هو الذي يقود الجيوش العربية، لكنّه لم يواصل تقـدمه وقبل عرض البيزنطيين، أي الرحيل عن تلك المناطق مقابل مبلغ مالي، وقفـل راجعـا إلى مصر ومعـه غنائم وفيرة تجعل أرستقراطية الحرب والأرستقراطية التجارية تفكّر من جديد في العودة إلى إفريقيّة. لكن الظروف التي سيواجههـا العـرب هذه المرة كانت أنسب من التي سبقت إذ تمردت القبائل البربرية بالمزاق على الحكم البيزنطي، لكنهم لم يتوجهوا الى إفريقية إلّا بعد أن حسمت مسألة خلافة عثمان، إذ أنّ الصراع حول الخلافة لم يكن مجرّد موضوع سلطة دينيّة تحقّ لهذا دون ذاك بل صراع بين مختلف شرائح الأرستقراطية العربية الثريّة والمستثرية من جهة، وبينها وبين الطبقة الشعبية التي أعطت للدين الإسلامي صفة «الدين الشعبي» من جهة أخرى، ولكنّ التنـاقض الثـاني كان تابعا للأوّل لأنّ الأمر آل في النهاية إلى ذوي النّفوذ الإقتصادي والعسكري الفعلي وهم الأمويّون ـ لقد عمل عثمان على تدعيم العائلة الأموية التي ينتمي اليها والتي تمثّل الأرستقراطية العربية التي كانت في البداية من أشدّ المعارضين «لصـاحب الرّسالة». لكنها ما فتئت أن ساندته كي تستعيد مجدها السالف. وفي عهد عثمان تولّى أقرباءه على الأمصار وعلى قيادة الجيش فأصبحوا يستغلّون مناصبهم، وأوّل ما فعلوه هو أن استولوا في ـ السّواد ـ (بالعراق) على أرض ـ الصّواني ـ التي ما كان للخليفة أن يتصرّف فيها بوصفه ملكا «للمسلمين» ـ وراحوا يستغلّونها بالأساليب الإقطاعية التي كانت سائدة في العراق قبل فتحه، كما استولوا في سوريا على أراضي الدولة السّابقة واستغلّوها بواسطة العبيد.

ورغم أن ثراء هذه الطبقة الارستقراطية سيثير نقمة العرب وخاصّة قبائل العراق والمنادين بديمقراطية الحكم، إلّا أنّ الأرستقراطية الممثّلة في معاوية ابن أبي سفيان ستتمكّن من وضع يدها على الحكم بعد القضاء على علّي بن أبي طالب ممثّل الشّق الآخر من الأرستقرطاية وستتمكّن من تركيز أوّل دولة عربيّة إسلامية ممركزة قائمة على أرستقراطيّة الأرض والجيش.

5) المرحـــلة الثانية من «فتح» المغرب : النصر السريع

كان من نتائج هذا الصراع إيقاف حركة «الفتح» في اتّجاه إفريقيّة لمدّة 17 سنة تقريبا، وكانت الحملة الثانية على يد معاوية بن حديج سنة 666 م. وهــو الذي تمكّن من التوغّل في البلاد وهزم البيزنطيّين في سوسة ـ ورجع سفيان وولّى عوضا عنه عقبة ابن نافع ـ ومعه تبدأ المرحلة الثانية من «فتح المغرب» فعاود عقبة «فتح البلاد» من جديد إلى أن وصل قلب المزاق حيث أسّس القيروان. «وكان العرب قد لاحظوا أنّ أهل إفريقيّة يدخلون في طاعة العـرب وربّـما دخل بعضهم في الإسلام، طالما بقي العرب ببلادهم فإذا انصرف العرب عن البلاد شقّ أهالي إفريقيّة عصا الطاعة وارتدّ من دخل في الإســلام إلى النصرانيّة» (15) خاصــة «وأنّ ـ برقـة ـ القـاعدة العسكرية للعرب بعيدة عن إفريقيّة ولا يمكن أن تتمّ منها مراقبة دائمة لها، لذلك رأى عقبة وجوب إنشاء قاعدة عربيّة بإفريقيّة تكون كما ذكر بن الأثير في الكامل «عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد» وكانت هذه القاعدة موجّهة للتصدّي ضدّ قيام الثّورات البربريّة وحول اختيار موقعها بعيدا عن البحر.

يذكر ابن عذارى رأي عقبة بن نافع : إنّي أخاف أن يطرقها صاحب القسـطنـطينية بغتـة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحـر إلاّ وقـد علم به» وأصبحت بذلـك مدينـة القيروان مركز الإنطلاق نحو الغرب لغزو كامل المغرب وكان ـ أبو مهاجر ـ الذي عوض عقبة على رأس الجيش أوّل من دخل المغرب الأوسط باحتلاله لتلمسان لما تحالف مع ـ كسيلة وـ أوربة ـ لكنّ هذا التحالف لم يعمّر طويلا إذ لما عاد عقبة على رأس الجيش وقاده غربا إلى مدينة ـ باغاية ـ أين هزم البيزنطيين وحلفائهم من البربر ثمّ زحف غربا عبر طريق ـ الزّاب ـ الصحراوي فشتّتهم ثم توجّه إلى ـ تاهرت ـ أين تجمعت قبائل ـ لواتة ـ و ـ هراوة ـ و ـ زواغة ـ و ـ زناتة ـ ومكناسة ـ وحلفائها البيزنطيين فانتصر عليهم. وهكذا قضى على مقاومة البيزنطيّين والبربر المتحالفين معهم في المغرب الأوسط واتجه بعد ذلك الى طنجة. ويروى المؤرخون العرب أنّ حاكم ـ سبتة ـ و ـ طنجة ـ «يوليان Julien » لم يقاوم عقبة بل استقبله استقبالا حسنا عاقدا معه معاهدة صلح وقد أفاده بمعلومات عن البربر فيما وراء جبال الأطلس. ومن طنجة اتّجه نحو ـ وليلي ـ منتصرا على جمع غفير من البربر، ويذكر ابن عذارى أنّ عقبة انحدر من السّوس «وتوغّل في صنهاجة ونزل أغمات ووادي النفيس وسار حتى ـ

ايجلي ـ بالسّوس. ويصوّر المؤرخون نهاية مطاف عقبة عند المحيط تصويرا قصصيا فيذكر ابن عذارى «إنّه لما بلغ الماء بطن فرسه ورفع يديه إلى السماء وقال : يا ربّ، لولا أنّ البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك القرنين مدافعا عن دينك مقاتلا من كفر بك» » . عندها قرّر عقبة العودة إلى القيروان ولّما وصل إلى مدينة ـ طبنة ـ بالزّاب ـ انقسم جيشه إلى ثلاث فيالق واتجه عقبة على رأس كُتيبَة قليلة العدد نحو جنوب ـ الأوراس ـ لكنّه بوغت في جهة بسكـرة ـ بحلف بيزنـطي بربري بقيادة كسيلة الذي هزم عقبة وقتله سنة 683 م ودخل القيروان في نفس السنة ونصّب أميرا على البربر لمدّة ثلاث سنوات أثارت جولة عقبة السريعة الجدل بين المؤرخين وهي بالفعل مثيرة للإستغراب، إذ أنّ هذه الإنتصارات السريعة لجيوش «المسلمين» لم يحرز عليها الروم إلاّ بعد قرنين تقريبا لأنّ البربر مقاتلون أشدّاء من أجل أرضهم فكيف مرّ بها عقبة بهذه السهولة وفي ظرف وجيز ؟ . إنّ الروايات التي يوردها المؤرخين لم تدوّن إلاّ بعد قرنين تقريبا وتصل لنا بدقّة متناهية. إنّه أمر مُثير للانتباه!!

6 ـ هزيمـة الكـاهنة : نهـاية المقاومة البربريّة

إلاّ أنّ زهير بن قيس سرعان ما عاود هجومه على القيروان بعد أن أمدّه الخليفة عبد الملك بجيوش، وتمكّن من دخولها وقتل ـ كسيلة ـ في موقعه ـ ممس ـ (Mems) سنة 686 م وسقطت من جديد بين أيدي البيزنطيين عندما غادرهـا زهـير. وعاود العرب غزو إفريقيّة من جديد في عهد ـ حسّان بن النعمان ـ الذي عينّ قائدا للجيوش العربة فاحتلّ قرطاج سنة 695 ثمّ واجه تكتلا بربريا جديدا في الأوراس بقيادة الكاهنة سنة 697 م بوادي ـ مسكيانة ـ وأسفـرت الحـرب عن هزيمة حسّان بن النعمان الذي انسحب إلى برقة وعادت الكاهنة إلى الأوراس. يوذكر ابن عَذَارَى أنّها عملت على القضاء على مظاهـر العمـران بإفـريقية : فبعـد أن كانت إفريقية ظلاّ واحدا من طرابلس إلى طنجـة، قرى متّصلة ومدنا منتظمة تلاشى ذلك كلّه وشمل الخـراب سائـر هذه البلاد». ممّا دفع بالحضر الى التحالف مع حسّان بن النعـمان في حملته الثانية، وانضمّوا إلى جيشه، وبذلك كان النصر حليف العرب وطارد حسّان الكاهنة إلى حدود جبال ـ الأوراس ـ حيث قتلـها.

وبقتلها، أمكن القول أنّ حسّان قضى على المقاومة البربريّة الطّويلة ثمّ قضى نهائيّا على البيزنطيّين ودخل من جديد قرطاج سنة 698 م وأقام مدينة جديدة داخل الخليج وعلى بعد 12 ميلا شرقي قرطاج وهي مدينة ـ تونـس ـ، ـ ترشيش ـ القديمة التي كانت قرية التي كانت قرية صغيرة أنشأ فيها دارا

لصناعة السفن فتطوّرت إلى أن انتقلت السيطرة على البحر إلى العرب.

وعرف الوجود العربي بالمغرب مرحلة جديدة مع حسّان بن النعمان، حيث أنّه عمل بعد قضاءه على البيزنطيين على تنظيم البلاد إداريًا كما حدث في الشام والعراق ومصر وفارس، فدوّن الدواوين ونظّم الخراج وبعث عمّاله على سائر بلاد المغرب والفقهاء لتعليم اللغة العربية للبربر عن طريق الدّين « وجنّد منهم (أي البربر) جنده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر، ووزّع بينهم الخطط على نحو ماكان يفعله قوّاد الفتوحات في مصر على الفاتحين العرب وكان حسّان يقسّم الفيء والأرض بينهم» كما يذكر ذلك المالكي.

7 ـ لماذا تنوّعت أنماط الإنتاج في ظل الدولة العربيّة الفتيّة ؟

إنّ العرب لم يغيّروا في النظم الاقتصادية والاجتماعية التي وجدوها بالبلدان التي احتلوها وعلى الأخصّ غزواتهم الأولى إذ أنّ جمع الغنائم والخراج وفرض الضرائب على السكان صرفهم في البداية عن الإهتمام بمصادر الثروة لأنّ أرستقراطية الحرب كانت في حاجة ماسّة إلى تجميع ثروة هائلة تكون عمادها في حروبها المتعدّدة أضف إلى ذلك أن التمايز الطبقي في الجزيرة ما زال حديث العهد بالنسبة للبلدان التي احتلوها، وهذا يعني أنّ تنظيمهم الإجتماعي مازال متخلّفا بالنسبة لنظم المجتمعات الاخرى. وهو أمر يوضّح لنا تنوّع أنماط الإنتاج في الدولة العربية الإسلامية ويوضّح لنا كذلك مدى التأثير الذي كان للمجتمعات الاخرى على العرب حيث أنّهم مرّوا بسرعة من المجتمع العبودي إلى المجتمع الإقطاعي.

لقد كان القسم الأكبر من الضّرائب والخراج يعود إلى عمال الخليفة وقادة الجيوش ورؤساء القبائل الذي أثّروا في مدّة قصيرة. وتكوّنت بناء على ذلك في المجتمع العربي أرستقراطية كبيرة أصبحت هي نفسها تبحث شيئا فشيئا عن استقرار في مواردها، رغم تعدّد مصادر تزوّدها وخاصّة من الشعوب المغلوبة وهذا هو العامل الذي سيحوّلها من طبقة تجارية عسكرية حاكمة الى طبقة تغتني بمصادر الثروة القارة : الارض.

وبالرغم من احتماء العرب بالتنظيم القبلي والعشائري في البلدان المغلوبة خوفا من الإمتزاج بشعوبها، فعاشوا في معسكرات (القيروان، البصرة، الكوفة، الفسطاط) أقيمت بشكل تحافظ القبائل على نمط عيشها وتنظيمها فإنّ الأرستقراطية القائمة مصالحها على الحرب والرقّ بفعل تأثير المجتمعات

الإقطاعية (أو السائرة في طريق التحوّل إلى الإقطاعيّة) السّائدة في البلدان التي احتلوها شهدت في عهد الأمويين تحوّلها الى طبقة الإقطاعيين المسيطرين ببلدان الخلافة. ويمكننا القول أنّ تولي الأمويين السيادة العسكرية والسياسية كان بمثابة مرحلة انتقالية في تاريخ المجتمع العربي ـ الاسلامي الذي كان يضمّ أقواما متعددة. وذلك لا يعني أنّ النظام الإجتماعي تحوّل نهائيّا. إنّه مازال يحافظ على سمات أساسية من المجتمع العبودي وكذلك بقايا المجتمع البدائي إذ تواصل العمل سواء في أيّام الأمويين أو ـ السّفيانيّين بالأساليب التي كانت تتبع في استغلال المزارعين إبّان «الفتوحات» (العمل العبودي ـ وعمل الأقنان في العديد من المناطق أو العمل المشاعي البدائي).

إنّ فيض العبيد الذي تدفّق من ميادين الحروب أغناها الى حدّ كبير حتّى أنّها كانت من الشروط التي تقدّمها لرفع حصار عن مدينة ما، أن تقدّم لها 400 عبد كلّ سنة، على اعتبار أنّ العبيد كانوا بمثابة ضريبة تؤديها الشعوب المغلوبة. إنّ دخول العرب هذه البلدان عطّل مؤّقتا تطور العلاقات الإقطاعية لأنّ أرستقراطيتهَم لم تهتم كما سبق أن قلنا بمختلف فروع الإنتاج. وعلى الأخصّ بالزراعة لأنّها كانت مشغولة بالضرائب والجباية والغنائم وما تجمعه من ممتلكاتها الخاصة.

وبدأت مع الخليفة عبد الملك بن مروان فترة جديدة في العهد العربي حيث أنّ الإصلاحات التي قام بها تشير الى تغيير أساسي في سياسة الأمويّين وهي الإنتقال من مرحلة الإحتلال العسكري الى الإدارة المدنية الرّتيبة لشعوب البلدان المفتوحة، وهذا يعني السيطرة على الحياة الإقتصادية والسياسية وسيظهر ذلك في المغرب في عهد حسّان بن النّعمان وخلفه موسى بن نصير الذي تولّى قيادة الجيوش الإفريقية وتمّ على يديه غزو كامل المغرب حتى المحيط الأطلسي والتوغّل حتى سجلماسة في جنوب المغرب.

إنّ عملية احتلال المغرب فرضت على موسى بن نصير مواجهة القبائل البربرية وخاصة قبيلة ـ هوارة وقبيلة ـ زناتة ـ ثم فيما بعد قبيلة ـ صنهاجة ـ حتى وصل الى السوس والدرعة جنوبا : وأحدثت غزوات موسى بن نصير هزّة كبيرة بين قبائل البربر وسبّب لهم الذعر والهلع فأخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم ويستسلمون لهم وتسابقوا في إعلان خضوعهم والدخول في طاعتهم» (16).

8) العرب يغزون إسبانيا بجيش بربري

حرص العرب المسلمون على فرض الإسلام في شمال إفريقيا فرضا لكى

يكون قاعدتهم نحو إسبانيا وذلك لأن الخدمة العسكريّة كانت لا تفرض إلاّ على المسلم. وتولّى طارق بن زياد ولاية طنجة، ويذكر ابن عذارى أنّه كان بربري الأصل ومَوْلَى لموسى بن نُصير فولاّه قيادة الجيوش التي تتكوّن في أغلبها من البربر (سبعة آلاف مقاتل بإستثناء 300 من العرب) «وهي أوّل مرّة في تاريخ الفتوح العربيّة يتولّى فيها جيش بأكمله من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلسّ» (17).

وتحدّث ابن خلدون عن أربع قبائل كان يتألّف منها جيش طارق وهي : ـ مطغرة ـ و ـ مديونة ـ و ـ مكناسة ـ وهوارة ـ وكلّها فـروع لـ زناتة ـ.

وبعد أن أمنت إفريقيّة نسبيًا ـ خاصة أيّام الخليفة الأموي عمر بن عبد العـزيز ـ عمـل الـولاّة وخـاصّـة منهم اسماعيل بن أبي مهاجر على الدّين الإسلامي بين البربر ويذكّر ابن عذارى أنّ «بربر إفريقيّة أسلموا جميعهم في أيّام إسماعيل بن أبي مهاجر».

وقد تكون النقلة تمت نهائيا خلال القرنين الأوّل والثّاني للهجرة وتدعّمت في القرون الثلاثة الموالية وانتشرت اللغة العربية بين القبائل المتحالفة مع العـرب وتبنّت الإسـلام. وبقيت اللغة البربرية منتشرة خاصّة في المناطق الجبليّة وبين القبائل الرّعويّة إلاّ أنّها كانت لغة شفويّة. وقد لعب تأسيس المدن والجوامع التي كات تتولّى مهمّة التعليم الذي كان مقرونا بالدين (تحفيظ القرآن وتعليم الفقه). وكانت الجوامع محور الحياة الإجتماعية تشيّد في قلب المدينة قرب الأسواق. ـ وفي القرن الثاني للهجرة ـ ظاهرة إنشاء المساجد في داخل بلاد البربر وفي بلاد السّوس وتأسيس مساجد بقصد الأعمال الخيرية وأشهرها مسجد الجامع بالقيروان الذي أسّسه عقبة بن نافع ومسجد تلمسان وأغمات.

9) سيـاسة التمييــز ضدّ البربـر تثير ثوراتهم

بعــد أن عرفت إفـريقيّة كجـزء من الـدولـة الأمـويّة هدنـة نسبيّة مع الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبد العزيز خاصّة في الميدان الجبائي، دخـل طورا جديدا من اضـطرابات ابتداء من عهد هشام بن عمد الملك (724 م ـ 743 م) حين وقـع إقـرار تنـظيم جديد لدواوين الجبـاية التي أصبحت تعمل دون انقطاع لملء خزائن الخلافة وإشباع جشع الأرستقراطية الأمويّة التي رفضت التنازل عمّا كان يخصّصه لها بيت المال.

لم تدم سياسة المساواة والعدل التي «فتح» بها العرب إفريقيّة لأنّ المصالح الطبقيّة أبلغ من النداءات السمحة لأيّ مناد. فبعد المرحلة الأولـى التي لم

تثقـل فيهـا الأرستقـراطية كاهـل البربر بخراج وجباية «معقولة» وبعد أن جنّـدتهم للدخول الى أروبـا من الجهة الإسبانية، عمدت الى سنّ جباية جديدة ووضعت على الـولايات ممثّلين لها أوفياء، حيث تولّى يزيد بن أبي مسلم الولاية على إفريقيّة وسلك فيها سلوك الحجّاج بالعراق. كان هشام ويزيد بن عبد الملك وحلفاءهما يرون أنّ انتقال البربر الى الإسلام قد أدّى إلى ضياع مورد هامّ من موارد الـدّولـة وهو الجزية التي كانت تفرض على المعاهدين من النصارى وأهل الذمّة وأجبروا الداخلين الجدد في الإسلام على دفع الجزية والخراج.

وهذا الموقف دفع ببعض الغلاة كعبيد الله بن الحبحاب إلى سلوك سياسة تعصّب للعرب ضدّ البربر «فأساء عمّال (بن الحبحاب) في المغرب السيرة مع البربر واعتبروهم فيئا للعرب وعبيدا لهم» (18).

إنّ هذا التحوّل في السّياسة إزاء البربر أثار فيهم السخط على السلطة المركزية فثاروا في وجهها رافضين الظلم والإستغلال والقهر الذي كانوا قد رفضوه من الغزاة المتعاقبين على المغرب.

وكـما كانت ثوراتهم في عهـد انهيار الإمـبراطورية الرومانية موجّهة من الـدّونـاسيّة فإنّها اليوم أصبحت تتمّ بقيادة الخـوارج القـادمين من المشرق والثائرين على السلطة المركزيّة والداعين الى المساواة بين الملسمين والثورة على الظّلم... الخ.

ولكنّ البربر الذين كانوا يعانون الإضطهاد كشعب مغلوب تقبّلوا تعاليم الخـوارج بفـوارق كبـيرة. فبينما اعتنق القسم الشمالي والأوسط من المغرب الأقصى المذهب الأباضي، اعتنق القسم الجنوبي مذهب الصّفريّة. وبينما كان «المعتدلون» ينادون إلى الثّورة على الظّـلم نادى الصفرويّون إلى إقامة دولة بربريّة دينها الإسلام (أو إلى بربرة الإسلام) ولغتها البربرية. وظهرت هذه النزعة في ـ برغواطة ـ: «وقد انتقلت في قتال الأباضية والصفرية الى حركة تفوق في قسوتها حركة الأزارقة بالمشرق» (19). هذه الفوارق لا تعود الى الجغرافيا وإنّما لفعل التناقضات الطبقية. «فالمعتدلون» هم من الحضر حيث تسيطر الأرستقراطية البربريّة. التي لم تدع الى الثورة ضدّ الغزو العربي وإنما ضد الظلم ولأنّها تبحث في الواقع عن مصلحتها في إطار النظام العربي ـ الاسلامي.

أمّا الصفريّون فإنّهم من القبائل الرحّل التي مازالت بعيدة عن التأثيرات

العربيّة وهي التي حرمها الاحتلال العربي والتنظيم الجبائي الجديد من مراعيها وأراضيها التي اغتصبها منها الرومان والبيزنطيّون. وكانت تأمل أن تعود إليها مع «أصحاب العدل السّماوي» لذلك نراها أكثر تحسّسا لمصالحها الخاصّة وأكثر تشبّثا بذاتيّتها القوميّة.

10) 375 معركة خاضها البربر ضدّ العرب

وتزعّم الثورات البربريّة ـ ميسرة السقّاء الصّفري ـ الذي كان قائدا لقبائل ـ غمارة ـ مكناسة ـ و ـ بروغواطة ـ وتمكّن من السيطرة على طنجة. وحاول هشام بن عبد الملك القضاء عليه وبالتالي على هذه الثورات إلاّ أنّ جيوشه منيت بهزيمة ثقيلة في واقعة ـ بقدورة ـ على نهر ـ السبوسنة ـ سنة 742 م. وكادت القيروان تسقط في يد الثوّار الخوارج لو لم يتدخّل والي مصر لحمايتها. وثارت قبيلة ـ ورفجومة ـ فيما بعد وهي قبيلة صفريّة من الجنوب التونسي وهاجمت القيروان إلاّ أنّ البربر الأباضيّة من جبال ـ نوفسة ـ هاجموا بني ـ ورفجومة ـ وقضوا عليهم وأصبح حكمها يمتدّ من طرابلس الى القيروان وتمكن بذلك البربر مرّة أخرى من استرجاع الجزء الشرقي من افريقيّة وفرضوا سيطرتهم عليها ولم يتمكّن ـ ابن الأشعث ـ من دخول القيروان إلاّ سنة 760 م بعد عدّة حروب. كما تأسست مملكة صفريّة قرب تلمسان وأخرى في ـ تاهرت ـ التي كوّن فيها ـ عبد الرحمان بن رستم ـ إمارة. فتحالف خوارج هاتين الإمارتين مع خوارج جبال ـ نفوسة ـ ومجموعات أخرى من البربر وتمكّنوا من هزم جيوش ـ عمر بن حفص ـ والي القيروان في طنجة بالزّاب وهكذا تمكّن الخوارج من السيطرة لا على المغرب الاوسط فقط بل على كامل إفريقية ولم يفلح العبّاسيّون إلاّ في استرجاع طرابلس سنة 772 م ويذكر المؤرخون العرب أنّ هذه الواقعة هي خاتمة لثلاث مائة وخمس وسبعين معركة (375) خاضها العرب ضدّ الجيش العربي منذ أن ثاروا على عمر بن حفص. وتمكّن يزيد بن حاتم من محاصرة قبائل ـ فرجومة ـ و ـ نفزاوة ـ بالجريد وبقي المغرب الأوسط خارجا عن النفوذ العبّاسي. كما تكوّنت مملكة أخرى للخوارج أسسها حسب الجغرافي البكري بربر ـ مكناسة ـ من الصفريّة الذين ثاروا على والي القيروان، سنة 757 مسجلماسة لقد شهد المغرب إذن منذ أواخر القرن الثاني الهجري ـ الثامن ميلادي ـ قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه :

ـ الأغالبة بإفريقية وعاصمتهم بالقيروان.
ـ الرّستميّون في المغرب الأوسط وعاصمتهم تاهرت.

- بنو مدرار جنوب المغرب الأقصى وعاصمتهم سجلماسة.
- دولة بني صالح بن منصور الحميري في - نكور - والريف المغربي.
- دولة بني صالح بن طريف البرغواطي في شالة بتامسنا.

11) لماذا انتشر المذهب الخارجي في المغرب ؟

نشأت الدويلات البربريّة على أساس العصبيّة القبلية وبقيادة المذهب الخارجي - الذي كان يمثل تأويلا شعبيًا للدّين الإسلامي. لقد تبنّى البربر هذا المذهب بمختلف فروعه عن طريق دعاة وثائرين فارّين من الشرق حيث اضطهاد الحكم الأموي والعبّاسي، لأنّه كان عبّر عن طموح البربر في الخلاص من الإستبداد والإستعباد كما أنّه يتقارب والديمقراطيّة البدائيّة التي مازالت تعيش في صفوف القبائل وعلى الأخصّ الرعويّة، كما أنّه يتناسب وحاجتهم إلى بناء إرادتهم المستقلّة. إنّ هؤلاء الدعاة على الرّغم من أنّهم ارتكزوا على البربر ليكونوا دولا تصارع وتحدّ من نفوذ السلطة المركزيّة في المشرق - وقد تصل الى تعويضها خدمة لمذاهبهم ومصالحهم السياسية - لم يتمكّنوا من توحيد كافّة البربر بل زادوا في تدعيم عصبيّتهم القبليّة بأخرى طائفيّة. إلاّ أنّهم توصّلوا الى نشر اللغة العربية (لغة القرآن) بين هذه القبائل وإلى نشر الدين الإسلامي وحشروا القبائل البربرية أو لنقُلْ هذه الدويلات في التناقضات العامّة للمجتمع العربي الإسلامي وهو ما من شأنه أن يلفت أنظار الأرستقراطية البربرية إلى الصراعات على السلطة السياسية في الشرق، وأنظار الشعب البربري إلى كلّ الآتين من الشرق كحملة حضارة وعلم ومعرفة ودين وعدل ومساواة أو حملة ظلم وقهر واستعباد وهي خطوة أولى في طريق ربط مصير البربر في المغرب بمصير العرب في الشرق.

كانت إفريقية أكثر تعرّضا لهذه التأثيرات، لذلك نجد حركة الإستعراب أعمق مما هي عليه في باقي مناطق المغرب حيث أنّ ابراهيم بن الأغلب لم يجد صعوبة لبسط نفوذ على الجهة الساحليّة من قابس إلى سوسة وعلى - قمودة - في الجنوب بين القيروان وقفصة وتبسة - وكذلك على كامل المنطقة الممتدة بين القيروان وتونس لأنّ سكّانها حضر مستعربون سُنّيّون.

وازداد هذا التأثير (استعراب الأرستقراطية ثم استعراب الشعب) مع الإستقرار الذي عرفته الدولة الأغلبية وانتعاش الحياة الإقتصادية والعلميّة والثقافيّة حيث أصبح العديد من أهل القيروان يسافرون إلى المشرق

للجلوس إلى حلقات العلماء المشهورين. وتمكنت هذه الفئة، من نشر اللغة العربيّة والدين الإسلامي على أوسع نطاق. أمّا في الجهة الغربيّة من المغرب فإنّ الحركة كانت أكثر بطء لتشبّث البربر بذاتيتهم التي تشكو صدعا كبيرا وكانوا، ومازالوا يترقبون أوّل معارض ليلتفّوا حوله ويصبحوا قوّته الظاربة لبناء دولة خاصّة به. هكذا كان الأمر بالنسبة لدولة الأدارسة والدولة الفاطمية وشذّت عن هذه القاعدة دولة المرابطين ودولة الموحّدين وكذلك الدولة الحفصيّة لكنّها كانت تقام باسم الدين الإسلامي وعلى أساس الإختلاف مع السلطة المركزيّة وبزعامة دعاة من القبائل المعنية واقتداء بمذهب من المذاهب غير الرسميّة.

12) الفاطميّون يبسطون نفوذهم على المغرب لغزو مصر.

من أهمّ الدول التي ذكرناها والتي سيكون لها تأثير بالغ على المغرب: الدولة الفاطميّة والدولة الموحديّة.

لقد قامت الدولة الفاطميّة على الدعوة الشيعيّة. ويعود الشيعة بالمغرب الى الفرع الإسماعيلي (نسبة إلى الإمام إسماعيل) وتقوم الدعوة للمهدي المنتظر كركن من أركان هذا المذهب عن طريق دعاة يتوزّعون في انحاء البلاد. ولعب هذا الدور في المغرب الداعية أبو عبد الله الشّيعي الذي اتصل بحُجّاج من ـ كتامة ـ اصطحبوه الى بلادهم سنة 899 م فاعتمد على قبيلتهم في تجميع البربر حول ونظّم تنظيما عسكريّا قائلا لهم حسب رواية لابن عذارى: «أنا لا أدعوكم لنفسي وإنّما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت». ولّما جمع جيشا مهمًّا هجم على إفريقيّة ودخل مدينة ـ رقادة ـ سنة 909 م «وهنا خرج أهل القيروان والفقهاء ووجوه المدينة لاستقبال المهدي فهنّؤوه بالوصول وسألوه تجديد الأمان لهم فأمّنهم على أنفسهم (حسب رواية لابن عذارى) وتّمت له البيعة في رقادة ـ أميرا للمؤمنين ـ واستقام له الأمر وضربت السكّة باسمه وأسند المناصب لرجال يثق بهم وأخمد ثورات القبائل.

لقد كانت أنظار الفاطميّين متجهة نحو مصر كمرحلة لاسترجاع «شرعيّتهم» في الخلافة، وقاموا بعدّة محاولات باءت بالفشل وبيّنت لهم ضرورة تأمين خليفتهم بتكوين دولة قويّة على كامل المغرب ومن ثمّة بدأوا غزوهم بصفة فعليّة سنة 922 م فقضوا على الأدارسة بمساعدة أمراء ـ مكناس ـ.

وبعد وفاة المهدي سنة (322 هـ ـ 944 م) قامت ثورات منذ بداية ولاية ـ القائم بأمر الله ـ في طرابلس وفاس وكانت أخطرها ثورة ـ أبو زيد مخلد بن كيداد ـ من قبيلة ـ يفرق الزناتية ـ بالجريد كان يلقّب بصاحب الحمـار.
كانت هذه الثورات تعبيرا على الحالة المتدهورة التي وصلت إليها الأوضاع الاجتماعية أيّام المهدي.

يقول ابن عذاى : «وفي سنة 307 هـ ـ (919 م) كان بإفريقيّة طاعون شديد وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة والتعلّل على أموال النّاس

13) صاحب الحمار يسعى إلى تعويض الحكم الفاطمي بمجلس شيوخ الفقهاء

قام صاحب الحمار بالدعوة الى الأباضيّة على مذهب النكاريّة (وهو أكثر المذاهب الخارجية تطرفا) ورحل الى الأوراس معقل الثورات الدائم حيث انضمّ اليه عدد هائـل من الـبربر الساخطين على الحكم الفاطمي وتلقّب بـ ـ شيخ المؤمنين ـ ودعا إلى تعويض الحكم الفاطمي بمجلس من شيوخ الفقهـاء، وعمّت ثورته الى ان حاصر المهديّة، ويذكر المؤرخون العر بأنّ الأمـير الفـاطمي لم ينـج إلاّ بطلب النجدة من زيزي بن مناد زعيم قبيلة صنهـاجة. ولم يتمكن الفاطميون من إخماد هذه الثورة إلاّ في عهد أبي العباس إسماعيل والملقب بالمنصور. وقاتل اليزيد حتى قتل سنة 947 م وتمكّن بعد ذلك المعزّ لدين الله الفاطمي (953 م ـ 975 م) من بسط نفوذه على الجزء الأكبر من المغرب عن طريق جيش بقيادة جوهر الصقلّي وبمساعدة زيزي بن مناد الذي تولّى الزّاب وأسّس مدينة ـ أشير ـ ولما استقرّ له الأمر في بلاد المغرب توجّه ـ جوهر الصقلّي إلى مصر ودخل الإسكندرية ثم الفسطاط سنة

969 م واختطّ حيّا جديدا أصبح نواة لمدينة القاهرة ثم دعا المعزّ الذي رحل عن المغـرب سنـة 973 م. وظلت مصر تحت النفوذ الفاطمي مدّة قرنين كاملين وقد أطنبت المصادر العربية في وصف ما أخذه المعزّ معه من إفريقية من كنوز وأموال طائلة واصطحابه لجميع موظّفي دولته ووُلّي من بعده على المغرب زيزي بن مناد زعيم قبيلة ـ صنهاجة. إلاّ أنّ ولاء الصنهاجيّين ضعف خاصّـة مع الخليفة المعزّ 1016 م ـ 1062 م. فكان ردّ فعل القاهرة أن حاولت الإطاحة بالإمارة بالإعتماد على قبيلة كتامة ثم أعلن المعزّ القطيعة بلعن الفاطميّين في الخطب وبلبس السّوادّ (شعار العبّاسيّين). فكانت ردة فعل الفاطميون أن أرسلوا إلى إفريقية قبائل بني هلال وبني سليم.

14) الفاطميون ينتقمون من الصنهاجيين بإرسال الهلاليين إلى المغرب

كان الفاطميّون يمرّون بأزمة حادّة في الحكم، إذ تكاثرت الحركات الإستقلاليّة عن دولتهم، وشغلهم أمر قبائل بني هلال وبني سليم. كانت هذه القبائل تنتجع في الجزيرة نحو العراق والشّام في رحلة الشتاء والصيف. وتضم قبائل بني هلال بطونا من الانتج ورغبة ورياح وربيعة وعدي. فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي البازوري على المنتصر بإرسالهم إلى إفريقيّة للتخلّص منهم فأباح لهم الخليفة إجتياز النّيل، ويذكر ابن خلدون أنّ البازوري قال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعزّ بن بلكين الصّنهاجي العبد الأبقّ فلا تفتقرون. ثمّ كتب إلى المعزّ: أمّا بعد، فقد أرسلنا إليك خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا»

قدمت هذه القبائل الزّاحفة حتّى وصلت برقة، فأعترضها المعزّ بجيش يتكون من الصنهاجيّين والزناتيين والبربر والعبيد وبقايا عرب «الفتح» في جهة قابس بحيدران سنة 1052 م لكنّه اِنهزم واِنفضّ عنه مناصرون من صنهاجة وزناتة ففرّ إلى القيروان أين حاصرته القبائل العربيّة سنة 1057 م.

أمر المعزّ وقتها: «بأن ينتقل أهل البصرة وسوقتها إلى القيروان وأن ينتقل جميع عسكره من الصنهاجيين إلى صبرة وينزلوا بأسواقها وأبنيتها، ولما دخل العبيد وعسكر صنهاجة صبرة أساؤوا اِستخدام مبانيها فخرّبت عمائرها العظيمة» (اِبن عذارى) وكان عرب بنو هلال قد اِستولوا على باجة وقابس وقسنطينة وتونس وغيرها من المدن. وفرّ المعزّ إلى المهديّة وتقلّص الحكم الصنهاجي على شريط ساحلي ضيّق.

15 ـ هل كان الهلاليون «همجا» و«مخرّبين» ؟

أثار زحف الهلاليّين اِهتمام المؤرّخين العرب القدامى والمعاصرين، وأطنبوا في وصف نتائجه ولم ينصفهم إلاّ القليل: ويصفهم اِبن خلدون «بالجراد المنتشر لا يقربون من شيء إلاّ أتوا عليه» أمّا المقريزي فيقول: «وعاثوا في البلاد ينهبون ويأسرون ويقتلون، فخرّبت القيروان حينئذ إلى اليوم... وصيّروا البربر لهم خولا (عبيدا)».

وأجمعت المصادر العربيّة تقريبا على أنّ القبائل الهلاليّة قد أتت على معالم

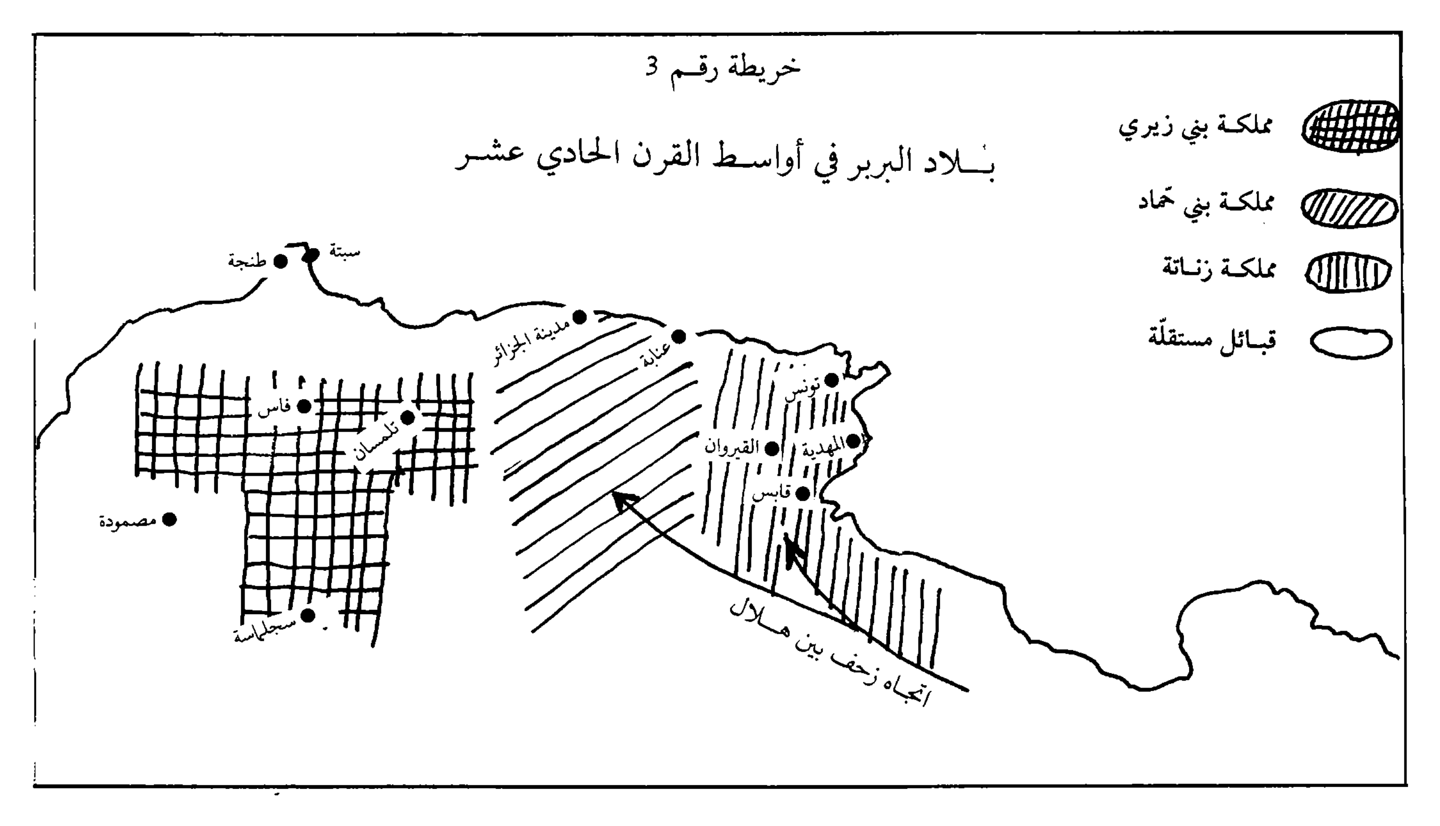
الحضارة بإفريقيّة من زراعة وتجارة ومنشآت وأحلّوا الدّمار، واعتمد مستشرقون فرنسيّون مثال ـ غوتييه (Gautier) و ـ شارل أندريه جوليان ـ على رواية اِبن خلدون ليسمّوا هذه الفترة «الفاجعة الهلاليّة» معلّلين بذلك نظرتهم الدّاعية إلى بربرة المغرب.

ويرى بعض المؤرخين ان نظرة اِبن خلدون تعبّر عن رأي الرّسميّين ورجال السّلطان. وحاول فريق آخر من المؤرّخين أمثال كوهين لاكوست ج. بونساي (Cohen Lacoste. J.Poncey) أن يأخذوا بعين الإعتبار الأوضاع العامّة الّتي كانت عليها إفريقيّة في أواخر العهد الصنهاجي وخاصّة الأوضاع الإقتصاديّة والإجتماعيّة حيث عاشت البلاد: **أزمة إقتصاديّة** لخروج الكثير من مسالك تجارة السّودان (الذّهب والعبيد) عن بني زيري. أضف إلى ذلك تدهور العملة الّتي ضربها المعزّ بعد أن أبطل التّعامل بالعملة الفاطميّة. **وأزمة اِجتماعيّة** من جرّاء الثورات العديدة الّتي ظهرت وخاصة في الجنوب (الجريد ـ نفزاوة ـ طرابلس ـ بلاد الحضنة ـ جبل نفوسة...) وكذلك انتفاضات العامّة بالمدن **وأزمة سياسيّة**: تصدّعت الوحدة السياسيّة التي تمكّن الزّيريّون بواسطتها من حكم إفريقية «فتفجرت المملكة وتفرّعت إلى إمارات صغيرة عديدة تساند كلّ واحد منها قبيلة عربيّة قد حطّت رحالها قريبا منها (بنو خراسان بتونس ـ وزغبة ـ رباح ـ عدي ـ الاتبج بصفاقس. وموسى بن يحي بقابس وقفصة بها حاكم، أمّا بنو حمّاد بالمغرب الأوسط فقد اِقتصر حكمهم على بجاية).

إننا لا نقدر على فهم الواقع إذا ما تهنا في التّفصيلات والتّأويلات للأحداث التّاريخيّة ولم نحتكم إلى نظرة علميّة تعتمد مقياس تطوّر قوى وعلاقات الإنتاج المتناسبة والمتناقضة معها، وكذلك المرحلة التّاريخية الّتي يمرّ بها مجتمع بشري ما والظّروف الاقتصاديّة والإجتماعيّة الّتي يعيشها.

إنّ أغلب المؤرّخين العرب الذين ساقوا حكمهم على القبائل الهلاليّة على منوال اِبن خلدون هم بدون شكّ مدافعون عن وجهة النّظر الرسميّة أي طبقة الارستقراطيّة وكذلك الشأن بالنسبة للمستشرقين الذين اِعتمدوا على اِبن خلدون ليعلّلوا بداوة العرب وتخلّفهم مدافعين عن وجهة النّظر الإستعماريّة.

أمّا فريق المؤرخين الّذي يريد التخلصّ من النّظرة السائدة ويعمل جهده للبحث في الأوضاع الملموسة فإنّه طمس نصيبا من الحقيقة الّتي لا غنى عنها.



خريطة رقم 3
بلاد البربر في أواسط القرن الحادي عشر
مملكة بني زيري
مملكة بني حمّاد
مملكة زناتة
قبائل مستقلّة
سبتة
طنجة
مدينة الجزائر
عنابة
تونس
المهدية
القيروان
قابس
فاس
تلمسان
مصمودة
سجلماسة
اتجاه زحف بني هلال

إنّ الّذي لم يعتن به المؤرّخون هو الطّور الإجتماعي الّذي كانت تمرّ به القبائل الهلاليّة والطّور الّذي يمرّ به المغرب عامّة وإفريقيّة على وجه الخصوص.

كنّا بيّنّا في الفقرات السّابقة كيف أنّ المجتمع العربي بعد أن دخل الطّور التّاريخي ومرّ إلى المجتمع العبودي لم يبق طويلا في هذه المرحلة كما كان الأمر بالنّسبة لمجتمعات أخرى، وذلك تحت فعل التّأثيرات الّتي اِستحدثها اِحتكاكه بالفرس والبيزنطيّين سواء في الشّام والعراق أو في مصر وإفريقيّة، ولاحظنا تشابك انماط الإنتاج الثّلاث (البدائي والعبودي والإقطاعي) في الإمبراطوريّة العربيّة - الإسلاميّة. وكانت القبائل الرّعوية هي الّتي تحافظ أكثر من غيرها على النمط المشاعي البدائي وذلك بالرّغم من التمايز الطبقي الّذي بدأ يشقّها وخاصّة الفرق بين «شيوخ القبائل» و«العامّة»، **والقبائل الهلاليّة كما يذكرها المؤرّخون هي قبائل بدوية رعويّة لذلك فإنّها لا تقبل بحياة الإستقرار وحياة الحضر ولا تعرف قيمة أرفع من قطيع الإبل أو الماعز أو الغنم وهي تسأم حياة الخمول لتعوّدها على شظف العيش.** لذلك لا نستغرب إذا علمنا أنّها أتت على المزارع لتجعلها مراعي، وأغارت على القرى والمدن لتأخذ منها حاجتها فهي كالقبائل البربرية الرعويّة الّتي يتحدّث اِبن خلدون وشارل أندريه جوليان عن تناقضها الدائم مع القبائل المستقرّة وعن الدّمار الّذي تلحقه عند هجوماتها وهي لا تختلف عن قبائل الوندال الّتي كانت من العوامل الكبرى في اِنهيار الإمبراطوريّة الرّومانيّة.

إذن لماذا كلّ هذا الإستغراب والمبالغات المثارة في وصف القبائل الهلاليّة ؟

إنّ التطوّر التاريخي الّذي كانت تمرّ به يعتبر متخلّفا عمّا هو سائد في الإمبراطوريّة العربيّة لذلك نراها لا تقبل الحدود المفروضة عليها بقوّة السّلاح وبفعل الحضارة وكلّما وجدت الفرصة تخلّصت منها بكلّ عنف.

لنمرّ الآن إلى الطّور الإجتماعي الّذي مرّ به المغرب.

لقد أوضحنا سالفا كيف كان تحوّل المجتمع البربري من المجتمع المشاعي إلى المجتمع الطّبقي على يد الفينيقيّين والرّومان، كما بيّنّا الأسباب الّتي جعلته يحافظ على مظاهر كبيرة من المجتمع البدائي وخاصّة عند القبائل الرّعويّة وأبرز هذه المظاهر هي العصبيّة القبليّة وذلك لأنّ الرّومان رموا بهذه القبائل إلى تخوم الصّحراء.

وبحلول الوندال وأزمة النّظام العبودي ظهرت الإقطاعات وأرستقراطيّة الأرض كقوّة بارزة في البلاد وأوقف هذا التّطوّر الحروب المتعدّدة وعلى الخصوص مع الإحتلال العربي الّذي سلكت فيه الأرستقراطيّة العربيّة سلوك الجباة بحثا عن جمع الضّرائب والخراج ولم تكن تهمّها النّظم الإجتماعيّة فأثقلت بهذه السياسة كاهل سكّان البلاد وعطّلت إلى حين تطوّر قوى الإنتاج.

ولم تشهد الحياة الإقتصاديّة اِنتعاشا إلاّ في فترات قصيرة. وأثناء الفترة الّتي حلّ فيها الهلاليّون كانت إفريقيّة تعيش أزمة مثلثة حادّة إقتصاديّة واِجتماعية وسياسيّة تزيدها تعقيدا عمليّات النّهب الّتي قاموا بها وتحويل المزارع الشّاسعة إلى مراعي، الأمر الّذي أثّر بصفة جليّة على الحياة الإجتماعيّة.

يقول شارل أندريه جوليان «إنّ البربر المستقرّين والرحّل كانوا قد توصّلوا بصعوبة إلى اقتسام الأراضي الضّرورية لمعاشهم. لكنّ البداوة عمّت بمجيء الهلاليّين وتحولت الأراضي المعدّة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له، واِختنقت قرى ومدن صغيرة وخرّبت، ولم تسلم إلاّ الأراضي الفلاحيّة الكائنة على طول السواحل حول المدن الباقية أو داخل الجبال الّتي أحاط بها الهلاليّون دون أن يقتحموها... لقد توارت الفلاحة بإفريقيّة نحو السّاحل والوطن القبلي وبنزرت بينما أصبحت أراضي الزّياتين في الوسط مرتعا للأغنام والإبل» (20)

16) عوامل استعراب البربر في المغرب ومراحله

لقد رأينا من خلال الإستعراض الموجز للأحداث التّاريخيّة أنّ المرحلة الأولى من الإحتلال العربي والمقاومة البربريّة كانت مرحلة اِستعراب الأرستقراطية البربريّة ودخولها في الصّراع من أجل السّلطة السياسيّة أو على الأقلّ تقاسم النّفوذ وخاصّة ضمان سيادتها على المغرب.

وكان ذلك يتمّ على أيدي معارضين عرب للسلطة المركزيّة يلتجؤون الى قبيلة من القبائل تصبح عماد الدّولة في منطقة من مناطق المغرب، تتغيّر رقعتها حسب قوتها العسكريّة وحسب ضعف أو قوّة التّحالفات الّتي تعقدها وكذلك حسب قوّة أو ضعف السلطة المركزيّة. وتوصّلت الأرستقراطيّة البربريّة في إطار هذا الصّراع أن تبني دولا خاصّة بها دون أن تلتجىء إلى دعاة عرب أمثال الدولة المرابطيّة والموحّدية.

إنّ دخول أصاحب الدّعوة من المعارضين لم يعرّب الأرستقراطيّة البربريّة وحدها وإنّما مهدّ السبيل إلى اِستعراب عامّة البربر لكن بقيت الخطوات التي تسير عليها بطيئة ولم تأخذ شوطا إلاّ في إفريقية أين أصبح أغلب الحضر مستعرين ومع مجيء الهلاليّين أخذت حركة اِستعراب القبائل أبعادا أخرى لم تشهدها من قبل يقول شارل اندري جوليان «كان زحف بني هلال بلا منازع أهمّ حدث عرفته بلاد المغرب اثناء القرون الوسطى. فهي التي أثّرت أكثر من الفتح الإسلامي تأثيرا طبع المغرب بطابع لم تمحه القرون» إنه رأي صائب إلى حدّ كبير!

إن قبائل بني هلال الزّاحفة على إفريقيّة أتت من المشرق حاملة معها تاريخ العرب وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وهي قريبة في نمط عيشها من القبائل البربريّة الرعويّة. إنّها ليست جندا محاربا وإنّما هي عائلات وأموال وأنعام تدخل بلاد المغرب، حلّت به لتندمج بأهله وتصبح من السكان. إنّ الفعل الخفيّ والتّحتيّ لهذه القبائل هو الّذي لم يحدث لا في عهد قرطاج ولا في عهد الرّومان. وهذا الفعل الذي يقرّ به شارل أندري جوليان وينكره في نفس الوقت هو حدّد وطبع اكثر الهويّة القوميّة للبربر فحوّلها إلى هويّة عربية. لقد تبع مجيء الهلاليّين سياسة اِبن تومرت الّذي أراد إضعافهم بتشتيتهم حين أخذ جزءا منهم إلى المغرب الأقصى ثمّ اِعتمد عليهم في حكمه وجعل منهم شراطته وجباته. وهذه السياسة زادت في توسيع تأثيرهم على الطبقة المغلوبة وعمّقت سير اِستعراب كامل المغرب. يقول شارل أندريي جوليان: ففي أواسط القرن الثاني عشر كان عرب بني هلال قد بسطوا نفوذهم على إفريقية وتوغّلوا كثيرا في المغرب الأوسط ومن جهة أخرى كان عرب بني معقل وهم آخر من دخل بلاد المغرب بصدد التسرّب إلى المغرب الأقصى عن طريق مشارف الصّحراء. وكان هؤلاء وأولئك قد تحالفوا مع البربر الزناتيين وأصبحوا بذلك جموعا بدويّة قويّة جدّا...»

لكن جزء من السؤال المحيّر حول سرّ محافظة البربر على ذاتيتهم القوميّة مع الفينيقيين والرومان وفقدانهم لها مع العرب يبقى مطروحا.

لقد تعرّضنا إلى جواب هذا السّؤال عبر دراستنا وسنقف على الفكرة الأساسيّة في هذه الخلاصة.

إنّ القرطاجيّين والرّومان لم يتمكنوا من النّفاذ إلى الذّاتيّة البربريّة لشعب المغرب وكل ما تمكنوا منه هو «قرطجة» و«درومنة» الأرستقراطية البربريّة أو بصفة أدقّ جزء منها، وذلك بالرّغم من ضعف الرّوابط القوميّة لديهم

وخاصّة عامل اللّغة الّتي بقيت لغة تخاطب ولم تتحوّل إلى لغة مكتوبة فكانت العصبيّة القبلية أقوى من الرّوابط القوميّة. ويزداد ضعف هذه الرّوابط مع تواتر الغزوات ولّما حلّ العرب ببلاد المغرب تمكّنوا من دمج الأرستقراطية البربريّة، ووفّروا ظروفا أنسب لعمليّة اِندماج الشعب بتعليم اللّغة العربيّة بصفة واسعة باعتبارها «لغة القرآن»، ثمّ أنجز الهلاليّون ما لم يقدر عليه القرطاجيّون والرّومان وكذلك الأرستقراطيّة العربية فنفذوا إلى وجدان البرابرة وأكسبوهم الذّاتيّة العربيّة. لكن ذلك لم يكن يعني اِندثارا كليّا لعاداتهم وتقاليدهم الّتي أصبحت جزء مميزا من الحضارة العربيّة فالعديد من التقاليد الّتي نعرفها اليوم هي في الأصل بربريّة (الكسكسي، الكدرون، والوشم الخمسة كتعويذة...)

وخلاصة القول فإنّ اِستعراب المغرب تمّ بتفاوت كبير بين مختلف أجزائه فإفريقيّة مثلا عرّبت بنسبة أكبر إذ أكبر النّاس فيها مستعربين ولم تبق إلاّ بعض الجيوب البربريّة الّتي رفضت الإستعراب أمّا بالنستبة للمغرب الأقصى فإنّ نسبة المستعربين تكاد تكون متوازنة مع البربر. وهو أمر مرتبط شديد الإرتباط بالفعل المتجمع للعناصر القوميّة الّتي تحدّثنا عنها سابقا ٪

الزهراء. جويلية ـ أوت 1983



المراجع

(1) فريدريك انجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، دار التقدم ـ موسكو، ص ص 25 ـ 27.

(2) رشيد الناظوري، تاريخ المغرب الجزء الأول، العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ بيروت 1981، ص 83.

(3) شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، الجزء الاول، الدار التونسية للنشر، 1983 ص ص 131 ـ 132.

(4) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985، ص 27.

(5) شارل أنـدري جوليان، تاريخ افـريقيا الشـمالية الجزء الاول، الدار التونسية للنشر 1983 ص 179.

(6) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985 ص 28.

(7) رشيد الناظوري، تاريخ المغرب الجزء الاول العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ بيروت 1981 ص 326.

(8) نفس المصدر السابق ص 331.

(9) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية) سراس للنشر 1985، ص ص 28 ـ 29.

(10) نفس المصدر السابق ص 29.

(11) موجز الاقتصاد السياسي، نشر نورمان بيتوين 1969، ص 43.

(12) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985، ص 34.

13) عبـد العـزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثاني، دار النهضة العربية بيروت 1981. ص 138.

(14) نفس المصدر السابق ص ص 138 ـ 139.

(15) نفس المصدر السابق ص 198.

(16) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثاني دار النهضة العربية بيروت 1981 ص 257.

(17) نفس المصدر السابق ص 271.

(18) نفس المصدر السابق ص 299.

(19) نفس المصدر السابق ص 302.

(20) شارل أنـدري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية (الجزء الثاني) الدار التونسية للنشر 1983 ص 98.

الفهـــرس

الايداع القانـوني
صيف 1988

سحب من هذا الكتاب
5000 نسخـة

المراجـــع

(1) فريدريك انجلس، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، دار التقدم ـ موسكو، ص ص 25 ـ 27.

(2) رشيد الناظوري، تاريخ المغرب الجزء الأول، العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ بيروت 1981، ص 83.

(3) شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، الجزء الاول، الدار التونسية للنشر، 1983 ص ص 131 ـ 132.

(4) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985، ص 27.

(5) شارل أنـدري جوليان، تاريخ افـريقيا الشـمالية الجزء الاول، الدار التونسية للنشر 1983 ص 179.

(6) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985 ص 28.

(7) رشيد الناظوري، تاريخ المغرب الجزء الاول العصور القديمة، دار النهضة العربية ـ بيروت 1981 ص 326.

(8) نفس المصدر السابق ص 331.

(9) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية) سراس للنشر 1985، ص ص 28 ـ 29.

(10) نفس المصدر السابق ص 29.

(11) موجز الاقتصاد السياسي، نشر نورمان بيتوين 1969، ص 43.

(12) محمد الهادي الشريف، تاريخ تونس (الطبعة الثانية)، سراس للنشر 1985، ص 34.

13) عبـد العـزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثاني، دار النهضة العربية بيروت 1981. ص 138.

(14) نفس المصدر السابق ص ص 138 ـ 139.

(15) نفس المصدر السابق ص 198.

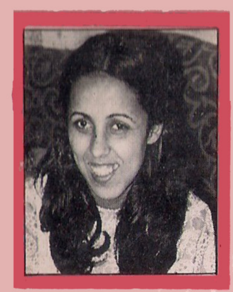
(16) عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثاني دار النهضة العربية بيروت 1981 ص 257.

(17) نفس المصدر السابق ص 271.

(18) نفس المصدر السابق ص 299.

(19) نفس المصدر السابق ص 302.

(20) شارل أنـدري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية (الجزء الثاني) الدار التونسية للنشر 1983 ص 98.



ولدت عائدة الهاني، زوجة محمد الكيلاني في 21 اكتوبر 1955.
عملت مدرسة تاريخ بالمعاهد الثانوية
ناضلت في صفوف الاتحاد العام التونسي للشغل وتحملت مسؤولية نيابة المعهد الثانوي برادس (المبيت) وعضوية لجنة المرأة العاملة المتفرعة عن لجنة الدراسات التابعة للاتحاد العام التونسي للشغل.
كما ناضلت في صلب فرع الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الأنسان بالزهراء.
وقد واجهت عائدة المرض العظال، بكل رباطة جأش، وقضت سنتين كاملة في صراع لا يرحم معه، إضافة الى المتاعب الاخرى التي سببها اضطرار زوجها السجين السياسي السابق الى الاختفاء في فترة كانت فيها هي وطفليها في أوكد الحاجة الى حضوره الى جانبهم، ولكن هذا لم يفت من عزمها بل كان على العكس، دافعا لمزيد من البذل والعطاء فسجلت في المرحلة الثالثة لانجاز أطروحة حول تاريخ تونس وهو ما أرادت به
مسابقة الزمن لانجاز حلم طالما راودها. كما أنها كفت في آخر فترة من حياتها، عن اطلاع ذويها وأصدقائها، على حقيقة تطورات مرضها وهي الملمة بكل دقائقها، اشفاقا عليهم من أعباء مشاركتها تحمل ما كانت تستطيع تحمله لوحدها بشجاعة نادرة.

الناشر.

الثمن: 1 500 م